

مأساة الأمة في مطولة الدرة

للشاعر/ عمر شلايل - أبو رجائي دراسة تحليلية

الدكتور/ عبد الجليل حسن صرصور*

Abstract

This study is a humble attempt to discover the fact of the poet through this long poem, which glitteringly glides to be one of long and great ones. It is also a serious attempt to dive in the depth of the meanings, touching at the same time its background which may wing in most of its aims to something of symbolism wrapped with cynical cocoons and sometimes with painful propaganda. So the poet touched deeply the problem of the Arabian human, being along with the tragedies of his nation in a lucid and cynical way.

The study is distributed into six parts namely: Glare of defeat, reality and mask, fall of masks, illusion, petrol's dumb riddle and priceless Jerusalem. We tried, through our effortless action, to prove that the relationship is very close, stable and tangled among all of these parts to formalize at the end a comprehensive technical weave tinted with color of sadness, wet with tears of bereaved and widow women in this brave nation.

ملخص البحث

هذه الدراسة محاولة متواضعة لإزالة الحجاب عن كنه صاحب هذا القصيد الذي انساب في جدول رقراق ليصب في النهاية في خضم المطولات، ثم هي محاولة جادة للغوص في أعماق المعاني، وتلمس خلفياتها التي ربما جنحت في كثير من مراميها إلى شيء من الرمزية المغلفة بشرنقات السخرية والدعابة المؤلة أحياناً كثيرة، وهكذا، وهكذا نجد شاعرنا قد مسّ مشكلة الإنسان العربي بعمق، وكذا مآسي أمته بسخرية لاذعة. ولقد جاءت الدراسة هذه موزعة على محاور ستة هي: وهج الهزيمة، والحقيقة والقناع، وسقوط الألقعة، والسراب، والنفط لغز صامت، والقدس غالية.

ولقد حاولنا أن نثبت ما وسعنا الجهد أن العلاقة وطيدة بين هذه المحاور كلها لتشكل في النهاية نسيجاً فنياً متكاملًا. مصبوغاً بلون الأسى، مبتلاً بدموع الثكالي والأرامل، واليتامي في هذه الأمة الباسلة.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأقصى - غزة

تمهيد:

اخترت مطولة "محمد الدرة الفلسطيني" للشاعر عمر محمود شلايل⁽¹⁾، لما فيها من ميزة خاصة تميزها عن بقية أشعاره السابقة⁽²⁾، وعلى الرغم من أن الشاعر ما زال يستخدم المعجم الشعري الخاص به، فإن طريقته الفنية في هذه القصيدة جذبت انتباهي إليها، ربما لأنه يتحدث فيها عن شهيد هز بشهادته أركان المعمورة، فهاجت له النفوس، وبكته الشعوب مسلموها ومسيحيوها، كما تحدث عن بشاعة الإجرام الصهيوني الذي لم يرحم طفلاً في الثاني عشر ربيعاً من عمره، فقتله في حضان أبيه دون هوادة أو رحمة.

فعندما قرأت هذه المطولة التي نشرت في أكتوبر تشرين الأول 2000م لفتت انتباهي صورة الطفل الشهيد "محمد الدرة" الذي احتضن صدر أبيه على غلاف القصيدة؛ مما هالني وأفزعني؛ شأني في ذلك شأن آلاف البشر ممن شاهدوا المأساة على شاشة التلفاز، فأقبلت على قراءة القصيدة، ثم عاودت القراءة مرة ثانية لاستيعاب البنى الدلالية التي توزعت على محاور القصيدة، وعددها ستة محاور، فصل الشاعر بينها بعلامات فاصلة، توحى بتغيير الحركة الدلالية في النص أو تجدها بتجدد المحور، بعضها قصير وبعضها طويل، لتقع في إحدى وثلاثين ورقة من القطع المتوسط.

إن قراءتي لهذه المطولة الشعرية تنطلق من عنايتي واهتمامي بانتفاضة القدس، انتفاضة الحق، انتفاضة شعب انتهكت حرمان مقدساته، بل مقدسات المسلمين كافة، وشرد من أرضه، فأخذ يدافع عنها بما أوتي من قوة، فما وجد إلا الحجر ليواجه به جيشاً دجج بالسلاح الفتاك الذي صوبه نحو هذا الشعب لا يفرق بين طفل وشيخ أو بين امرأة وعجوز.

هذه المرحلة من مراحل انتفاضة الشعب الفلسطيني دفعتني لقراءة هذه المطولة وما

أنتجته من نصوص شعرية أخرى، فكان لمطولة "محمد الدرة" الشعرية خصوصية جعلتها تختلف عن أي نص من الشعر العربي عامة، على امتداد عصوره، ولأثرها الواضح في نفس كل مَنْ شاهد استشهاد هذا الطفل البريء الذي امتدت له يد العدو الصهيوني، إذ صوب أحد الصهاينة الأوغاد فوهة بندقيته ليقتله دون ذنب اقترفه ويصرخ ولا مغيث، يصرخ وما يتوقف رشاش صياده لقتله بدم بارد.

وها نحن نجد الشعر اليوم يقف في خط المواجهة والنار، يشحذ الهمم، ويقوي النفوس: ولا أحد يشك في أن هذه المطولة، مطولة "محمد الدرة" تمثل إضافة جديدة إلى نتاج الشاعر عمر محمود شلايل أولاً، وإلى الشعر العربي ثانياً، وأخص بذلك الشعر الفلسطيني.

هذا هو شاعر من شعراء فلسطين شاهد استشهاد الطفل البطل محمد جمال الدرة⁽³⁾ على شاشة التلفاز مثلما شاهده الملايين من البشر ظهر يوم السبت الموافق 2000/9/30م عند مفترق الشهداء بغزة فهاله ما رأى، ولكنه لا يملك العصا السحرية لينجد هذا الشهيد من رصاصات الغدر والإجرام، فهتف صارخاً في مطولته الشعرية التي أسماها "محمد الدرة الفلسطيني" ينادي العرب كل العرب بنفس ثائرة ملتهبة، فالشاعر هنا ساخط غاضب على وضع فلسطين تلك الدولة المقهورة، فأله أن تكون هذه البقعة المقدسة من بقاع الوطن العربي مضطهدة مهانة، يأكل خيراتها اليهود، ويسومون شعبها سوء العذاب، يستغلونها وينهبون أرضها، ويقتلون شعبها، آله أن يقتل اليهود أبناءها بدم بارد غير آبهين بهم وبالعرب جميعاً، فيثور لبشاعة المشهد الذي رآه والذي يظهر بشاعة وحقد اليهود، وكيف كان الجندي الصهيوني يتلذذ بقتل طفل بريء لمجرد اشتهاه القتل.

وعليه رأينا أن نحاول دراسة مطولة الشاعر عمر محمود شلايل دراسة تحليلية

متعددة المناحي والاتجاهات مع التعرض للمنهجين التاريخي والجمالي في بعض الأحيان، وذلك لما في مطولته الشعرية من قيم تاريخية وجمالية تقتضي التوقف أمامها بشكل أو بآخر، أما المنهج التحليلي فقد كان جُلّ اعتمادنا عليه؛ وذلك لأنه "يأخذ في الاعتبار محاولة استقصاء الجوانب التي يمكن أن تؤثر في فن القصيدة على مستوى الصياغة الجمالية والمحتوى معاً"⁽⁴⁾.

تمحورت المطولة في ستة محاور جاءت واضحة وضوح الشمس، وهي خصيصة انفراد بها شاعرنا في مطولته "محمد الدرة الفلسطيني"، فأصبحت ظاهرة الوضوح في مطولته مكوناً أساسياً في شاعريته، والسبب في ذلك هو الحدث ذاته، فقد أخذ الشاعر يصب جام غضبه وثورته على اليهود وعلى الأمريكان وعلى العرب.

إن قضية استشهاد محمد الدرة شغلت الشاعر، فأبدع في التعبير عنها بهذه القصيدة التي أسميتها مطولة - إن جاز لي ذلك - والتي تعتبر ذروة التألق الوجداني للشاعر، فإن إدراك الأبعاد الدلالية لهذه المطولة لا يمكن أن تكتمل إلا بإدراك كونها خطاباً وجهه الشاعر مفتوحاً قادراً على استيعاب أصوات أخرى من ناحية، وتوظيف بنياته توظيفاً رمزياً من ناحية أخرى.

المحور الأول: وهج الهزيمة:

إذا كان الشاعر عمر شلايل قد عنون مطولته الشعرية بـ "محمد الدرة الفلسطيني" فإنه قد استخدمه بكل دلالاته التي قد تخطر على البال سواء دلالات الاستشهاد أو دلالات الهزيمة للعرب، ولكنه لم يترك القارئ يتخبط شمالاً ويميناً في فضاءات الشهادة، وفي فضاءات الهزيمة، فلقد وضع لنا في بعض المواضع المقصود بالشهادة، وفي البعض الآخر المقصود بالهزيمة.

ومما لا شك فيه أن مكونات الفضاء الشعري لا متناهية، فهي لا ترتبط فقط بما

تقذفه الصياغة خارجها، وإنما تتصل أيضاً بالكون الثقافي والفكري للمتلقي، بحيث يثير العنصر الغائب أو العنصر الحاضر في الصياغة إحياءات متعددة في ذهن المتلقي، تضاف إلى فضائه الشعري، والعلاقة بين البنية السطحية للصياغة، وفضائها الشعري، تقوم على عملية شد وجذب متبادلة بينهما⁽⁵⁾. وهذه العلاقة الجدلية "تقوم على إضافة كثير من عناصر التعبير الغائبة بالفعل أو بالقوة، إلى الفضاء، ثم ترد إلى النص المنطوق كثيراً من الدلالات الفضائية"⁽⁶⁾.

والشاعر عمر شلايل يتحرق ألماً لوطنه السليب الذي قاوم فيه تلمود الغزاة ولم يفلح في إخراجهم منه لما لحق بالأمة العربية من تشقق وانقسامات حتى ظهروا كأنهم وجه ساطع لروم يتغنون بمزامير السلام ويرتلونها بنصوص وضعها لهم الغزاة فيقول⁽⁷⁾:

قاومتُ تلمودَ الغزاةَ فهالني،

تلمودُ ذلٍ في العروبة أبشعُ...

وإذا كان الشاعر قد قاوم تلمود اليهود ولم يرعبه مثلما أرعبه تلمود الذل الذي أوجده الاستعمار عند العرب، وكأنما تهود العرب، ولكنهم لم يصلوا إلى مستوى اليهود، كما يرى انسلاخ العرب عن الثوب العربي الأصيل فيقول⁽⁸⁾:

عربٌ ويبدو في المرايا وجْهًا

وكأنه وجهُ لرومٍ يسْطَعُ...

تتلو مزاميرَ السلام مرتلاً،

ومترجماً من تحتِ أقدامِ الغزاةِ نصوصه تُدافعُ...

واضح أن العرب تتساوى مع اليهود فهم وجه واحد، ولسان واحد، يرتلون وينشدون متشدين بالسلام، بمعنى أن العرب يتغنون بنفس الأغنية التي يرتلها اليهود، وكأنما هي من تعاليم مزامير داوود. ولا يخفى علينا حالنا هذا كعرب بل ندركه جيداً،

وندرك أيضاً مساحة القهر التي لحقت بنا جراء انجرافنا خلف أمريكا وما تفرضه علينا من قيود وحصار، فقد أصبحنا مضطرين للسير خلفها لأننا فقدنا القرار، فقدنا قرارنا، فلم نعد نختار ما نشاء، بل خيارنا أصبح ملكاً لغيرنا، أصبح ملكاً لخيار أمريكا. ولو كان العرب متماسكين لما كان عربي مثل "محمد الدرة" يقتل بهذه الطريقة البشعة وسط الأمة العربية مثل غيره من الفلسطينيين. ويعود الشاعر يبلغ الشهيد محمد الدرة رسالة عليها تخفف عن الطفل الشهيد وقع المأساة التي خلفها لشعبه، فيقول⁽⁹⁾:

وهجُ الهزيمة يا محمدُ يرتعُ...

كل الكواسر والجوارح يا مُحَمَّدُ حولنا

حطَّت على جسدِ العروبةِ بالمخالبِ تَقْطَعُ...

وكأنَّها هي جيفةُ

لا تستجيبُ لجرحها أو تَدْفَعُ...

واضح أن قوى القهر المتغلبة تكالبت على جسم الأمة العربية الهامدة تقطعها إرباً إرباً، وتبلغ السخرية قمتها بشيء من التشفي في قول الشاعر "جيفة" وهو محق بالفعل هنا لعدم استجابة الجسد العربي للنداءات المتكررة والصرخات المدوية، فالعروبة جمعاء لم تستجب لجراحها كما في قول الشاعر⁽¹⁰⁾:

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ... مَا لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

فالهجمة الصهيونية على الشعب الفلسطيني هي بداية الهجوم على العرب جميعاً، فالحجر الفلسطيني هو سلاح أبناء فلسطين الوحيد في مواجهة تلك الهجمة الشرسة، ولكنه أنى يرد قطعان الذئاب وهم في الواقع خراف، هكذا قال المسيح "عليه السلام" عنهم: جنئت لهداية خراف بنى إسرائيل، وسماهم الأفاعي مرات عدة، ولكنهم استذأبوا في صورة الذئاب في زمن الضعف والهوان.

ولا ييأس الشاعر من هذه الهزيمة أو ذاك التفكك العربي، أو ذاك الحصار وتلك القيود التي تعبت بدول الوطن العربي، فيشير إلى بصيص من الأمل ليجعل من الحجر وسيلة جديدة لمحاولة تخليصنا من مخالب الاستعمار، وتحول الهزيمة إلى نصر بإذن الله، فيقول⁽¹¹⁾:

ولقد أتى حجري يَسُدُّ غِيَابَهَا،
ويردُّ قطعانَ الذئابِ وَيَرْنَعُ...
لكنه حجرٌ أمامَ دروعهم،
ومحمدٌ وكأنه كَيْسٌ يُعَبِّأُ بالرمالِ لساترٍ
لم تأتِ بَعْدُ جنودُهُ تتموضعُ...

ثم يختم المحور الأول بما بدأ به ليؤكد على استغرابه وفزعه من الذل الذي لحق بالعرب، فيقول⁽¹²⁾:

قاومتُ تلمودَ الغزاةِ فهالني،
تلمودُ ذلٍ في العروبةِ يا محمدُ أبشعُ...

فهو إذ ينادي بالتخلص من الذل، فإنه يشير إلى الوسيلة الوحيدة والأكيدة، فطريق الخلاص الوحيد من الاستعمار هو مقاومتهم أينما كانوا، وبأية وسيلة كانت، وتركيز الشاعر على عنصر المقاومة صادر عن فكر ثاقب وخبرة طويلة قضاها في السلك الدبلوماسي. وهو بهذه الخبرة المتواضعة يغوص في واقعنا العربي إذ تبتلع اليهود جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي، ألا وهو فلسطين ولا حراك لساكن، فيفزع الشاعر صارخاً بأعلى صوته مخاطباً الطفل الشهيد لعله يجد ما يتمناه، من صحوه ضمير يتحرك أو ضمير يستيقظ من سباته، تلك هي الأزمة التي باتت تؤرق شاعرنا كثيراً ويبحث عن حل لها.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن تكرار الشاعر للسطرين الشعريين اللذين ذكرهما في مطلع المحور ليس مجرد ترديد لهما فقط، وإنما هو وسيلة لغوية تنبض بإحساسه وعاطفته، بحيث يصبح التكرار معبراً عن حالة شعورية عاشها الشاعر وانفعل بها، وإن لم يكن كذلك فإنه متكلف "إن أسلوب التكرار يستطيع أن يغني المعنى ويرفعه إلى مرتبة الأصالة، ذلك إن استطاع الشاعر أن يسيطر عليه سيطرة كاملة، ويستخدمه في موضعه، وإلا فليس أيسر من أن يتحول هذا التكرار نفسه بالشعر إلى اللفظية المبتذلة"⁽¹³⁾.

المحور الثاني: الحقيقة والقناع:

انشغل شاعرنا بالبحث الدائب عن الحقيقة، حقيقة عروبتنا، هويتنا العربية وانتمائنا إلى عالم عربي واحد التي تهون دونه كل العذابات، كل النضالات، وهي ليست رحلة الشاعر وحده، وليست مسئولية الشاعر وحده، وليست مسئولية الشعب الفلسطيني وحده، بل هي الطريق التي سلكها من قبله الشعراء الرواد، رواد الحرية العربية، رواد وحدة الصف العربي، وسوف يلحق به من بعده من يؤمن بهذه الرسالة، الرسالة المصيرية التي اتخذ الشاعر منها الشهيد البطل الطفل محمد الدرة رمزاً له يعبر من خلاله عن شهداء انتفاضة الأقصى المباركة التي يجد من خلالها طريقاً لخلاص الشعب الفلسطيني من الاحتلال الصهيوني الغاشم بوحدة الصف العربي.

ويرتبط محور الحقيقة والرمز ارتباطاً عضوياً بمحور الهزيمة، حيث إنهما يمثلان خطين داليين متكاملين، ينسجمان مع بعضهما البعض، مما يجعلهما يبدوان وكأنهما محور واحد، ودائرة دلالية واحدة، تتصل ببقية الدوائر الدلالية التي تشكلت منها القصيدة، ولكن البحث جعلني أفضل بين هذه المحاور وتلك الدوائر بغرض الدراسة، والظاهرة الأسلوبية البارزة في هذا المحور، هي الاستقصاء الشامل للتوجهات العربية والحزبية عن طريق الخطاب الموجه إلى الشهيد الطفل "محمد الدرة" الذي يخبره فيه

عن الجدل بين أبناء الشعب الفلسطيني على اختلاف توجهاتهم، وبين أبناء الشعب العربي أيضاً، هذا الجدل البيزنطي الذي لا يوصل إلى حقيقة واضحة بقوله⁽¹⁴⁾:

هَانَحْنُ تُدْهِشُنَا الْحَقِيقَةُ يَا مُحَمَّدٌ عِنْدَمَا،

كُنَّا نَجَادِلُ فِي الْحَقِيقَةِ وَعَيْنًا...

وإذا كان الشاعر قد بدأ الأبيات بما يدل على التنبيه (ها)، فهذا من قبيل الأهمية لما سيقوله فيما بعد، إذ يغلب على الصياغة بما يوحي بالدهشة من معرفة الحقيقة التي طالما تجادلوا فيها.

ويعتمد الشاعر في هذا المحور على بنية التجاور التي أخذت شكلاً رأسياً كما في قوله⁽¹⁵⁾:

الْبَعْضُ مَنَا قَدْ يَفْلَسُ فِي الْهَزِيمَةِ أَمْرَنَا،

وَلِكُلِّ شَأْنٍ فِي الْهَزِيمَةِ يَنْتَقِي نَوْعَ الْمَبْرِرِ وَالْجَوَابِ،

وَالْبَعْضُ تَقَطَّرُ ذَاتُهُ رَجْساً عَلَى بَاقِي الذَّوَاتِ...

وَالْبَعْضُ مَاتَ...

فتكرار لفظة "البعض" في هذا المحور جاء نابضاً بإحساس الشاعر وعواطفه نحو التوجهات الحزبية والانقسامات الجغرافية التي أراد من خلالها أن يؤكد على المواقف الحقيقية من ناحية والمواقف الزائفة من ناحية ثانية؛ فكرر لفظة (البعض) خمس عشرة مرة في هذا المحور الذي بلغ عدد سطوره ثلاثين، فقد استعملها الشاعر ليضيفها في كل مرة إلى توجه حزبي أو سياسي له علاقة بفلسطين.

وقد آثر الشاعر تكرار لفظة (البعض) ليعطي كل جملة استقلالها التركيبي، وقوتها الأدائية، "وهذا النمط من التكرار لا يكتف الدلالة وإنما يكون اللفظ الثاني مستقلاً في بنيته العميقة عن اللفظ الأول، وإن ظل ترابط اللفظين قائماً على المستوى الشكلي"⁽¹⁶⁾،

فهي تستمد دلالتها من تفاعلها مع العناصر الجديدة التي تضيف معاني جديدة على الصياغة.

وتركيز الشاعر على لفظة (البعض) هنا له دلالة المعبرة، وهي أن حديث الشاعر عن الأحزاب والتوجهات السياسية لم يكن حديث المنافق أو المناصر لأي منها، ولكن الشيء الذي دفعه لقول الحقيقة هو غيابها في هذا الزمن الذي يقتل فيه طفل عربي مسلم في حزن أبيه أمام أعين المسلمين والعرب ولا مغيث، ولا منجد، ولا... ولا...، فلا يملك إلا أن يثور أمام هذا الحدث الجلل وأمام هذا الطغيان الفاسق الذي لم يفرق بين دم طفل برئ، ودم مقاتل في ميدان القتال، فيصرخ الشاعر بلغة ثورية تفهمها كل الشعوب وكل الأجيال، فإذا ما لقيت ثورته استجابة فالفائدة ستعم الوطن العربي عامة، والشعوب المقهورة وشعب فلسطين خاصة، وقد ركز الشاعر على بعض من يرغبون في إبراز الحقيقة وخاصة من هؤلاء من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وكأنما أراد أن يقول: إن هؤلاء الشهداء هم الذين قال فيهم القرآن الكريم: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»⁽¹⁷⁾.

فإذا كان الشاعر قد ركز على دور الشهداء فإنه يظهر زيف بعض الفئات وكذبهم المفتعل فيقول⁽¹⁸⁾:

والبعض يرفعُ يا محمدُ في كتابِ الله أحياناً،

وينسى ما تضمَّنه الكتابُ...

فهؤلاء يقولون ولا يفعلون، وهذا من أكبر الكبائر، وقد ذكروا في القرآن الكريم في قوله تعالى: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»⁽¹⁹⁾.

وهناك فئة أخرى قد أوغلت في الغياب أشار إليها الشاعر، بقوله⁽²⁰⁾:

والبعض أوغلَ في الغياب...

هاهي السلبية المطلقة عند هذه الفئة تظهر، وكأن الأمر لا يعنيهم لا من قريب ولا من بعيد، وبين الزيف والغياب يقيم الشاعر تعانقاً بين الجنس الناقص في السطرين الشعريين بين (الكتاب، الغياب) والتجنيس يزيد في رونق الشعر، ويُملّي عاطل معانيه، وهو عنوان الفصاحة، وشاهد الاتساع في اللغة، ودليل على توقد الذكاء، وجودة الذهن، ومسابقة خاطر⁽²¹⁾. والواضح أن من يقرأ القصيدة تعتريه دهشة وحيرة من ذلك التكرار للوحدات الصوتية والإيقاعية التي تكسب كل سطر منها مدلولاً له علاقة بالمعنى الذي جاء ضمنه. وهذا يعني أن الشاعر قد امتلك قدرة لغوية متميزة لها دلالات وإيحاءات تكسبها اللفظة من سياقها.

ويستمر الشاعر في عرض رؤيته السياسية لمجريات الأمور حوله، فيقول⁽²²⁾:

والبعضُ يخطُفُ برقّة ضوء البَصَرِ،

ويزلزلُ الأسماعَ يُطلقُ رَعْدَهُ،

والغيَمُ فيه بلا مَطَرٍ...

راحَ السحابُ...

تتحرك الأسطر الشعرية داخل عبثية واضحة تؤديها مجادلة البعض في إظهار الحقيقة إذ لبسوا القناع لإخفائها فيرعدون ويزلزلون ويرعدون أسمعنا بما يريدون فعله بالغاصب لأرض فلسطين كل فلسطين قلب الأمة العربية، ولكن هذه الصرخات المدوية لم تحدث شيئاً بل كانت كسحابة صيف قد انقشعت وزال ظلالها دون نزول المطر، ويزول القناع لتظهر حقيقة هؤلاء ويظهر الشاعر اليأس والقنوط عند البعض، فيقول⁽²³⁾:

والبعضُ من تعبِ التحدي حوله أخلَى وتاب...

والبعضُ يذهبُ عارياً خرقَ الثيابِ،

والبعضُ يزرعُ حقلةً أشجارَ توتٍ -

علَّها قد تسترُ المكشوفَ إن عَزَّ الحجابُ،

وتتعاقد بنية السطر الأول مع الثاني في بلورة صورة واضحة لهذه الفئة وتلك من خلال خط دلالي تسير فيه الصياغة؛ لتعمق الإحساس الشعوري لليأس الذي استبد ببعض الفئات ممن غرقوا في الفساد والكفر وكفروا بكل القيم العربية والإسلامية. والسطرين الثالث والرابع يشيران إلى الفئة التي ترغب في الاستتار خلف أوراق التوت، ولكن هيهات هيهات أن يستتروا؛ لأن الحقيقة لا بُدَّ أن تكشف، فأوراق التوت لم تغنهم فتيلاً، فقناعهم زائل لا محالة. أما الحكماء الذين رزقوا رهافة الحس، وتعقلوا الأمور فقد أدركهم المشيب فشابوا، فقال عنهم الشاعر⁽²⁴⁾:

والبعضُ أدركهُ المشيبُ لها فشابُ...

ويشير إلى الواهمين بعد حديثه عن الحكماء، فيقول⁽²⁵⁾:

والبعضُ ينفخُ يا محمَّدُ في الضفادعِ ربَّما،

قد صارَ ضُفدَعُهُ له جملاً هنا...

أيخوضُ ضفدعُ في الصحاري الحارقات وَيَحْتَمِلُ؟!

وإن اللفظ المكرر "ضفدع" ثلاث مرات بصيغة الأفراد أو الجمع لا تكتسب قيمته الفعلية من تكراره فحسب، وإنما من ارتباطه بالحالة الشعورية التي سيطرت على هذه الفئة وعلى صياغة الأسطر الثلاثة وهي حالة إثبات الوهم التي انماز بها أبناء هذه الفئة فهم يتوهمون ببناء دولتهم والنار تحرقهم، ويخيل إليهم فكرهم السقيم أو شيطانهم اللعين أنهم سيحققون شيئاً عظيماً، ولكن هيهات هيهات لهم ذلك، فهم كالقابضين على الماء بأيديهم، وهم الذين قال فيهم القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾⁽²⁶⁾

ويؤكد الشاعر ذلك بالاستفهام الذي استخدمه في السطر الثالث والذي خرج عن حقيقته وقصد به التوجع والتفجع والاستنكار لذلك الوهم، ولتلك الغفلة التي وقعت فيها هذه الفئة أو ذاك الحزب السياسي، فالحرب لها رجالها الذين لا يعرفون الأقنعة. وإذا كانت بعض الفئات قد أحبطت وفقدت الأمل، فإن هناك فئة أخرى يحدوها الأمل، كما في قول الشاعر⁽²⁷⁾:

البعض يحدوه الأمل...

وهذا يعنى أن بعض الفئات الحزبية تواقعة إلى الحرية والانعتاق من قيود الاستعمار بأنواعه، والتحرر من أغلال الطغاة تلك التي طالما عانى منها الشعب العربي بعامه والشعب الفلسطيني بخاصة، وهؤلاء هم الذين يقدرون قيمة الحرية الإنسانية فالأمل بالنسبة لهم هو الحياة والحياة بها الحرية والقيود، فهم الذين يستشرفون الغد المشرق الغد الجميل كالمثحفة قبل الإسلام أمثال زيد بن عمرو بن نفيل، وأميرة بن أبي الصلت وغيرهم كقول الشاعر⁽²⁸⁾:

أرباً واحداً أم ألف ربٍّ أدين إذا تقسّمت الأمور

ويستمر الشاعر في عرض رؤيته السياسية لمجريات الأمور حوله كشفاً للزيف والخيانة، فيقول⁽²⁹⁾:

والبعض يرفع في الستار وسامر الحرب انتهى،

والبعض يسدل في الستار ونحن في غمر المنى،

فالصراع الذي يحدثه الشاعر بين تلك الفئتين المختلفتين، يوضح لنا الفرق بينهما، ففئة تحاول رفع الستار موهمة بانتهاء كل شيء وطاب النشيد، والفئة الأخرى تتعجل بإرخاء ستار المتعة بأي شكل تراه والأمور لما تنضج بعد، وشمس الحقيقة لما تشرق بعد، ولا شك أن مثل هذه التقابلات تؤدي إلى وضوح دلالة المفردات بمقابلتها مع بعضها

البعض، ولا يعد التقابل "إخلالاً بالغرض المقصود وإنما هو مطلوب لخدمته من جهتي إبراز المعنى بضده، وإحداث أثر شعري في المستقبل أساسه الحركة والانتقال من معنى إلى ضده"⁽³⁰⁾ تكتسب قيمة عالية إذا نحن حاولنا أن نقابل من خلالها بين دوال سياقين لفئتين مختلفتين في التوجه والتفكير في مصير شعب بأكمله، وبراعة الشاعر نلمسها في الروح الساحرة التي تسري في شرايين الأبيات السابقة.

وهذه المعمة وذاك الصراع الفكري والجدل البيزنطي، وبين الحقيقة والقناع يوجه الشاعر نداءً مطمئناً للشهداء في شخص الشهيد البطل الطفل "محمد الدرة" مفاده الانتظار، الانتظار ريثما تطهر الأرض من رجسها، ومن ثم نطمئنك بالحقيقة، فيقول⁽³¹⁾:

نَمْ يَا مُحَمَّدُ رَيْثَمَا مِنْ أَرْضِنَا قَدْ تَنْتَهَى زُمْرُ الْكَلَابِ،
نَمْ يَا مُحَمَّدُ رَيْثَمَا نَجِدُ الْجَوَابَ...

يفتح الشاعر السطرين بمقطع شعري واحد كرره ليحدث به ذلك التغيير في بنية السطر فأضاف بعض العناصر استجابة للحالة الشعورية وكأنه أراد بذلك أن يحدث متعة جمالية في نفس المتلقي الذي يتلقى رسالتين مختلفتين تكمل إحداها الأخرى. وأمام استثناء الذل والهوان الذي استبد بالأمة العربية نرى الشاعر يهوي بمعوله ليحطم أقنعة الزيف والاستكبار الأمريكي، عله يكشف حقيقة العم سام، وفتق الحجب أمام الغافلين الذين حسبوا السراب ماءً: بقوله⁽³²⁾:

أَتَكُونُ أَمْرِيكَ إِلَهَ النَّاسِ وَالْكَفَرُ انْتَشَرُ؟!!
أَوْ أَنَّهَا فَوْقَ الْبَشَرُ؟!

أَوْ أَنَّهَا النَّاسُ الَّتِي فِي وَعِيهَا كَانَ الْخَلُّ؟!!
وَالْبَعْضُ مِنَّا يَا مُحَمَّدُ قِيُّهُ لَا يُحْتَمَلُ...
نَمْ يَا مُحَمَّدُ رَيْثَمَا قَدْ تَخْتَفِي فِينَا الْعِلَلُ،

أو ربما قد يختفي هذا السراب...

فالشاعر إذن يصب جام غضبه ونقمته على أمريكا المتزعمة للعالم وكأنها إله

للشعر، وذلك بأسلوب استفهامي يثير التعجب والاستنكار لما آل إليه الحال العربي من

انكسار وهوان، وهو يحاول في هذه الأثناء معرفة موطن الداء، أهو أمريكا أم مواليتها

العرب، وكل ذلك بسخرية لازعة كما ألمع الباحث إلى ذلك من قبل..

وأمام هذا الركام من الخلل السياسي والفكري يبرز الشاعر فئة من الناس تجاوزت

كل الحدود حدود العقل المدرك، فلم تحتل دعواها الباطلة، "وحاجتنا إلى الفكر المبدع

ليست فقط من أجل تجديد علوم اللغة والأدب، وإنما نحن في حاجة إلى هذا في كل

فروع الحياة، يجب أن يتدفق تيار الخلق والإبداع في كل شيء، وبه يتغير كل شيء،

نحن في حاجة إلى فكر مبدع في الاقتصاد، والسياسة، والتخطيط، وحسبنا عجزاً ومهانة

أننا في هذا كله نعيش على أفكار الآخرين، وإننا بهذا كله نزداد عجزاً وضعفاً...

ولهذا ترانا في السياسة، والاقتصاد، والآداب، تتوزعنا المدارس العالمية، نديرنا في

مداراتها، حتى كبار ساستنا، يقادون إما إلى الشرق، وإما إلى الغرب،.. لا بُد أن ننتزع

حقوقنا من عدونا انتزاعاً وهو مغلوب، كما انتزع أرضنا ونحن مغلوبون، ولنمزق أقمعة

الخداع، وإذا لم نفعل ذلك داستنا أقدام أبناء القردة، لأن الشعب الذي يعجز عن أن

يفرض إرادته على أرضه لا يستطيع حماية هذه الأرض، لأنه لا يحمي الأرض إلا شعب

عاش حراً كريماً عليها!!⁽³³⁾، ثم يطلب من الشهيد الصغير مكرراً ومؤكداً أن يستسلم

لضجته الخالدة، حتى يختفي الخلل، ويزول الزيف، فهو يفتح كوة من الأمل أمام

الإنسان العربي كما نحس من هذه الأبيات.

المحور الثالث: سقوط الأقمعة:

ويتعرى الزيف، ويبرز افتراء ما يزعمه الأصدقاء جلياً جلياً بعد أن بان الميسم

وأحرقت شمس الحق باطل ما يزعمون، فهم عرابة يستترون بورقة التوت أو الفرص
الأمريكية، متهمكاً ساخرأ كدأبه في هذا النشيد⁽³⁴⁾:

هانحن في عزّ النهار ونحتمي في عُرينا

ونقولُ أمريكا الصديقة والحليفة دائماً،

هانحن نعدو يا محمدُ خلفها،

هانحن نصحو واقفين بظللها...

فالشاعر هنا يصرخ ويبصرخ مستغيثاً بمن...؟! ليدرر الرؤوس، ويعدل موازين
الذهن العربي الذي ضل وضل وغوى جرأء عدوه وعوائه مع القافلة الأمريكية. إنه يريد
أن يقول بتهكم بيّن إن القوم يعدون خلف أوهام «مَثْلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا
أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ»⁽³⁵⁾.

ولا يفوت الشاعر في هذا السياق أن يشير إلى الجبن والوهم الذي مس العرب، فيقول⁽³⁶⁾:

بعنا خيار الحرب قبل أوانه،

من قبل أن تأتي بسلامها فيقاتلُ

لكننا، دوماً هنا نتفاعل...

إنه الخور وفطور الهمة الذي جعلنا نلقي السلاح قبل أوانه، فها نحن نشدو أغنية
السلام "وداعاً للسلاح" عبارة قالها الغرب من مركز قوة بعد حسم الأمور في الحرب
الثانية، ولكننا ودعنا السلاح قبل أوانه والخيط ما زال سحياً، والأمر ما زال فطيراً، أو
تراه الأمل الذي حدا بهؤلاء أن يلقوا السلاح؛ لا، لا، بل هو الوهم كما يستشعره الشاعر
في ثنيات القصيد، وحين يرى الشاعر تلك المتناقضات المريعة والتي لم يدركها الطغاة
من أمتة ينتابه الفزع والروع على مصير أمة توشك أن تضيع فيقول⁽³⁷⁾:

صارت تفتش كل شيء حولنا،

صارت تُفتشُ في أسرة نوميًا،
وجيوبنا وجيوبنا...
نجثو لها بالركبتين ونركع...
وبرغم ذلك كله ظلت هناك تماطل...
لكننا كنا هنا نتفأعل...

فكم هو حزن هذا الشاعر الجريح جراء الهيمنة الأمريكية على مصير أمته
ومقدساتها وسكناتها وحركاتها فوا ذلاه!!! وأي ذل هذا الذي وصلنا إليه؟! والشاعر
يذكرنا برواية الضاحك الباكي ضحك الساخر، وبكاء المضيع، فليضحكوا قليلاً وليبكوا
كثيراً لو كانوا يعلمون.

ومع ذلك كله، فالشاعر لا يقنط من رحمة الله، فالأمل يحدوه بين الفينة والفينة
أتراه يراهن حقاً على الزمن العصيب بأن تلد لياليه شيئاً مفرحاً؟! فإذا كان الألم والمرارة
والمعاناة قد لحقت بالشعوب العربية من أمريكا، فإن الشاعر يريد أن يشير إلى احتضان
أمريكا لإسرائيل (بنى صهيون) وحمايتهم، فيقول⁽³⁸⁾:

صهيون فوق الأرض، فوق العدل، فوق الحق،
فوق الجرح فوق رقابنا...
ويجوز منه ولا يجوز لغيره،
وتظلُّ أمريكا تُسلحهُ، تمولهُ، تحصنهُ، تدللُّه،
وترمي بولهُ في وجهنا...
لكننا والصبرُ من شيم الكرام أصولهُ نتحمّل...
فلم السؤالُ إذا العروبةُ كلُّها لا تجهلُ

وإذا النجاسة قد أصابت وجهها

فعروبتي في همة تتوضأ...

بنفس ملتاعة، وروح عصفت بها رياح الألم، يسجل الشاعر بعض مخازي الولايات المتحدة المتمثلة في احتضان الغاصب للأرض والعرض، مستلهمًا ذلك كله من الواقع الأليم برموز تنضح بالإثارة وبلغة عصرية تستثير الحس، وتلهب الوجدان، وقد نثر الشاعر نكاته الساخرة هنا وهناك، علّه يحرك ما تبلد في الضمائر، وما "تمسح" من الأحاسيس. تلك هي إشارة إلى واقع مؤلم في عبارات ساخرة مدهشة، بأن إسرائيل أصبحت المحكمة في كل شئ، وفوق نواميس الأرض جميعها، فأمريكا وإسرائيل صنوان لا يختلفان.

وأمريكا المؤلّهة ما فتئت تحتضن وليدها المدلل إسرائيل وتطلق يدها في المباح وغير المباح ولكن هذا كله لا يثنّي الشاعر عن عزمه على تحرير وطنه وأمته، فيأمل في صحوة عربية بعد أن أدركت العرب الأمر على وجهه الصحيح انطلاقاً من أرومتها الأصيلية، وأن الكذب لا ينطلي عليها، ولا سيما أن نجاسة اليهود قد أصابتها، وهي لا بد ناهضة لتذهب عن نفسها الرجس، بطهارة الروح وصدق الانتماء، والتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وفي هذه المعمة لا ينسى الشاعر أن يطمئن الشهيد البطل مرة بعد مرة بأن ينام قريح العين، لأن العقل الفلسطيني بدأ يتدبر أمره ويحدوه الأمل الكبير، فيقول⁽³⁹⁾:

نَمْ يَا مُحَمَّدُ رَيْثَمَا فِي أَمْرِنَا نَتَأْمَلُ

لَكِنَّا أَيْضًا هُنَا نَتَفَاعَلُ...

ويستدعي الخطاب الشعري النداء الموجه إلى أم معتم والمتمم والتي يستحضر الشاعر من خلالها منطقة من أعظم المناطق الإسلامية (أرض الرافدين) لكن استدعائه ينحصر في لحظة الفرج التي تعقد حولها الآمال وينوط بها رجاء أمة العرب، بل إنها هي مركز القوة الدافعة لخطر الاستعمار الصهيوني الذي بات يهدد المنطقة بما فيها الشعب

الفلسطيني، هذه الأرض الطاهرة - يقصد أرض الرافدين - ترنو لها عيون الشهيد أملاً
في زحف جحافل القادمين الفاتحين. فيقول⁽⁴⁰⁾:

يا أمَّ معتصمٍ تدورُ الأرضُ حولَكَ كلُّها،
نادى عليكِ محمدٌ بدمائه يتطلع...

رُدِّي عليه لمرّة في قوّة يصغي إليك المعتدون وَيَحْسِبُوا،
يا أمَّ معتصمٍ أنا حجري عصاي أَرُدُّ قطعان الغزاة وأمنع...
واللحمُ متراًسُ الصمودِ وخذقي،

لحمي أنا وكأنه دبابتِي، وكتائبِي، وقذائفِي
وأنا الذي شيعتُ فيكَ جنازتي

فأنا الشهيدُ الحيُّ قبل شهادتِي،
رُدِّي بإطلاقِ القذائفِ إن أردتِ تحيتي،
حتى وإن كانت قذائفُكَ البعيدة من كلام،
هي ربما خيرٌ من الصمتِ الحرام...

قد ماتَ مُعْتَصِمٌ...

فلا عربٌ تردُّ بجندِها

والآنَ يخذُلُها الكلام...

نَمْ يا غلامُ فربّما تنحلُّ عقدتُهُ اللسان

صرخة الملهوف، ونداء المستغيث يستثير أهل الرافدين علمهم يلبنون صيحة الشهيد
الصغير "محمد الدرة" الذي أرسلها مدوية بمداد دمه القاني الطهور، ألا فلتردي عليه
أيّتها الأرض التي عقد الأمل حولك، ورونا الشهيد بعينيه إليك أملاً في نصره شعبه ردي

عليه ولو مرة واحدة ليحسب لك الصهاينة ألف حساب. أيها الأمل المنعقد هناك - في أرض الرافدين - لا وسيلة لي في صراعي وشعبي مع اليهود غير حجري وعصاي، أدفع بهما المعتدين، وكذلك جثث الشهداء الطاهرة التي شكلت سداً منيعاً في وجه البغاة، فجسومنا هي دبابتنا، هي كتائبنا، وهي قذائف الموت التي تضرب بها وجه الأعداء أينما وجدوا، كيف لا ودمائنا قد امتزجت بثرى العراق منذ حين، ورفاة جند الرافدين قد حوتها أرض جنين حين هب لإنقاذ الوطن المنهوب منذ عشرات السنين. إنه الدم العربي الواحد، والمصير المشترك لأمة النضال عبر الدهور.

إنها صرخات شهيد ما زال يتنفس نسائم الأمل في الوجود طالباً أن تجاب دعواه، وتلبى نداءه، ولو كانت هذه الاستجابة كلامية لأن الكلام له دور مؤثر وفعال أحياناً أكثر من السلاح، كما في قول الشاعر⁽⁴¹⁾:

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفُ فَوَادُهُ

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ

أجدى ألف مرة من الصمت المطبق، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس ولا يملك الشاعر في النهاية إلا أن يتحسر على موت هؤلاء الأبطال الحقيقيين الذين جسدهم في صورة المعتصم، وبعده أطبق الستار على النخوة العربية، فلا جند تجند لتدفع الهوان، حتى أنها أصبحت عاجزة عن البيان المعبر عن المأساة فتم أيها الغلام اليافع، ريثما تحل عقدة الألسنة العربية، وتنطق بالحق المبين.

تلك هي الأزمة التي يمر بها الشاعر وشعبه الفلسطيني، وكثير من الشعراء العرب المعاصرين، فالمعاناة واحدة، والمشاعر واحدة، فالشعراء يغوصون في أعماق واقعنا العربي، وعلاقاتنا العربية العربية، والعربية غير العربية، فكل هؤلاء الشعراء لا يقبلون بالإهانات الموجهة لشعوب المنطقة العربية، فإسرائيل قد عقدت العزم على ابتلاع أرض

فلسطين، وشهيتها مفتوحة على البواقي من ديار العرب في شرقها وغربها، وهو أمر يفزع لهوله شاعرنا، فيسأل نفسه، ويتساءل لعله يجد مجيباً على أسئلته، فيقول⁽⁴²⁾:

هل هذه العربُ الكثيرةُ أهلنا؟!

هل هذه العربُ القريبةُ والبعيدةُ من هنا -

هي صورتِي؟!

هل هذه العربُ الفصيحةُ والذكيةُ والأبيةُ كلها ذهبت -

ولم تتركْ لنا غيرَ النطيحةِ والوقيعَةِ ترتدي ثوبَ العرب؟!

هل هذه العربُ الجديدةُ نسلنا؟!

هل هذه العربُ البدينةُ والقعيدةُ أمتي؟!

هل هذه القنواتُ من إرسالنا؟!

هل هذه الفتياتُ بالعريِّ الشديدِ تُطلُّ من شاشاتنا فتياتنا؟!

هل هذه العربُ الخفيفةُ والسفیهةُ ديُنُها من ديننا؟!

هل هذه النتفُ الرقيعةُ والوضيعةُ فننا؟!

الغربُ يسري في مسامِ جلودنا

والغربُ يدفعُ دَفْعَةً،

أكلت ثقافتَهُ منابرَ أهلنا،

نم يا محمدُ إنَّها غريبةٌ تلكَ الثقافةُ كُلُّها،

تساؤلات حائرة حيرة مشوبة بالعجب العجاب، والشك والارتياب إنها تتزاحم في

قلب الشاعر بشكل لا يريح؛ يظهر مرة ويبطن أخرى، وبياعانها تصبح موجهة للمتلقي

حافزة له، لقد جاءت هذه التساؤلات في صورة صرخات مدوية أطلقها الشاعر ليعبر بها

عن اعتراضه على ما يشاهده من تفكك في صفوف الأمة العربية، وتغيير في النظم العربية، والقطيعة الكائنة بين بعض الدول، ونقل الفكر الغربي ليطغى على الفكر العربي وعلى الثقافة العربية، وكأنما أراد الشاعر أن يصرخ عالياً أين النخوة العربية؟ أين القوة العربية الموحدة التي تدافع عن الحق العربي، عن الأرض العربية، عن الحدود العربية؟ عن لبنان، والعراق... لماذا تترك هذه الدولة وتلك لتصبح فريسة لقرصنة الشرق الأوسط الصهاينة الغزاة يعبثون بأرض القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ونحن المسلمين - العرب غائبون، نائمون لقد أصبحنا في سبات عميق!!!.

إن التحرك العربي العربي هو طريق الخلاص الوحيد من هذا السرطان الذي أصاب جسم الوطن العربي، ويحاول أن يفتك به جزءاً جزءاً تلك الأزمة التي يمر بها الشعب الفلسطيني، وقد مر بها الشعب العراقي، وكذلك الشعب اللبناني، وهي ثمرة مرة يقطفها أبناء الشعب العربي كله وإن اختلفت درجة الماراة بين هذا الشعب وذاك. فلماذا هذا الصمت العربي الطويل فإلام؟ وإلى أين...!!؟

ويؤكد الشاعر على غزو الثقافة الغربية للعرب إذ أضحى ظلها يتواجد في كل بيت، فيقول⁽⁴³⁾:

في كل بيت ظلها يتواجد...

في كل بيت شاهد...

بسبب هذه الثقافة المزيفة والدم غير النقي الذي يسري في عروقنا، والفكر المشوش الذي يحرك المسار العربي كان ما كان...، فمحمد الصريع تردى برصاص أحباء العرب الذين دمنوا منهم ونحن إليهم فوق ثرى بلاده الطاهرة، كما في قوله⁽⁴⁴⁾:

بقميصه المثقوب نام محمد فوق الثرى،

لا زال ثقب قميصه من صدره هو ينزف...

ومحمدٌ لم يقرأ التلمودَ بَعْدُ فيعرفُ...

والأمرُ صعبٌ شرحُهُ،

ومحمدٌ تلميذٌ مدرسةٍ ويذهبُ في الصباحِ،

ومحمد عرفَ النشيدَ ودفترَ الإملاءِ والخطَ الجميلَ،

ومعلماً يعطي الحسابَ وجدولَ الضربِ الصغيرِ...

هكذا يبدو الشهيد فهو ما زال جاهلاً بحقيقة الصراع الذي تديره تعاليم التوراة

والإنجيل كمنطلق رئيس لعداوة الغرب للعرب، حتى أن الشاعر يتحرج من شرح هذا

السر الغامض وكأن كشفه لا تستوعبه عقلية الطفل الشهيد وجمهرة العرب الكثيرة،

وإننا لنشتم هنا رائحة المنزع الصوفي في سكوتهم عن تفسير كثير من الأسرار التي لا

تستوعبها عقلية الإنسان، هكذا يبدو لنا.

فكل ما يعرفه الشهيد محمد أنه تلميذ في المدرسة لا يعرف سوى النشيد والخط

والإملاء والحساب إنه طفل برئ نزف دمه برصاصات الغدر والهمجية رغم أنه لا يعرف

الحقد على أحد لكنه مثقف خَبَرَ الأمور جميعها كما في قول الشاعر⁽⁴⁵⁾:

ومحمدٌ مُتَنَقِّفٌ...

عَرَفَ القِرَاءَةَ والكَتَابَةَ كُلَّهَا،

ومكان مولده هنا،

وخريطة الوطن الكبير...

ومحمدٌ عرفَ اليهودَ وجُنْدَهُمْ.

لكنه لم يقرأ التلمودَ بَعْدُ فيعرفُ...

أنَّ الجنودَ كمجرمينَ تصرفوا

بَقَرَتْ بطونَ الحاملاتِ جُنودَهُمْ،
 نم يا محمدُ إنَّ قَتْلَكَ أيسرُ،
 قَتْلُ الصغارِ لدى الغزاةِ لأَرْضِنَا،
 هيَ متعةٌ لا توصفُ...،
 ومحمدٌ لم يقرأ التلمودَ بعدُ فيعرف...

نعم، فالشهيد محمد الدرة متثقف خَبَرَ الأمور، وليس مجرد طفل في مدرسة، بل هو شيخ ثقافة، وإنه الطفل الفلسطيني الذي عركته الأحداث، وصقلته الخطوب، فكبير قبل أوانه، إنه متثقف يعرف مولده وخريطة بلده ووطنه العربي الكبير، ويعرف عدوه من صديقه، لكن هناك شيئاً واحداً غاب عن ذهنه وجعله عقله الكبير في غمرة الأحداث المتلاحقة، إنه يجهل التلمود وما أدخله اليهود فيه من زيف وتغيير، إنه يجهل تعاملهم مع الإنسانية بذلك الوجه البشع، فهم مجرمو حرب لا يرعون إلا ولا ذمة، ولا عهداً، ولا ميثاقاً. هكذا تعاليمهم تقول حتى الكبار في بلادنا لم يطلعوا على هذه الأسرار اليهودية، وكذا طفلنا الشهيد. إن الصورة البشعة لقتل الطفل الشهيد محمد الدرة لم تكن جديدة عليهم، بل هي ترجمة فعلية لتلك التعاليم الفاشية، إنهم يتلذذون برؤية الدماء غير اليهودية. "ومحمد لم يقرأ التلمود بعد فيعرف..."

وينتقل بنا الشاعر إلى رسم تلك اللوحة الحزينة لمصرع الطفل البرئ على أيدي اليهود والقتلة وعجز والده عن صد رصاص الغدر المنهمر إلى صدر الطفل الذي لا حول له ولا قوة لمواجهته، فيختبئ في ظهر برميل يتقي وأبل الرصاص الموجه إليه، فيقول⁽⁴⁶⁾:

ومحمدٌ في ظهرِ والدهِ يُكْوَمُ نَفْسَهُ،
 والوالدُ المقهورُ عجزاً ينزوي،
 هوَ أعزلٌ...!

ليست له إلا اليدين فمرة يحمي مُحَمَّدَ خَلْفَهُ،
 في مرة أخرى يُلَوِّحُ للجنود ويأمل...
 هو أعزل...!

في أي شيء يحتمي بصَبِيَّهِ؟!
 في ظهر برميل يحاولُ جُهْدَهُ أن يتقي
 في آخر اللحظات للنُبُضِ الأخير...؟!
 كيف الخلاص؟!

فضعف الطفل الشهيد البشري حفزه إلى الاستنجاد من العدو نفسه ولكن لا حياة لمن تنادي،
 فلجأ إلى برميل هناك، ولربما كان برميل زبالة، فيا لفظاعة الموقف!!!، إنها صورة بشعة حقاً،
 وتجلت براعة الشاعر في رسم هذه الصورة الدقيقة دقة متناهية، من حيث إن الرصاص لم يترك
 جزءاً من جسم الصغير حتى اخترقه، وأنه لتظالعا هنا صورة خالد بن الوليد وهو يجود بأنفاسه
 قائلاً: ليس في جسمي شبر إلا وفيه طعنة رمح أو ضربة سيف فلا نامت أعين الجبناء⁽⁴⁷⁾ ولا نامت
 أعين الجبناء يا محمد يا طفل فلسطين الرمز، ويكرر الشاعر قوله⁽⁴⁸⁾:

ومحمدٌ لم يقرأ التلمودَ بعدُ فيعرفُ،

تري ما الذي يقصده الشاعر هنا من هذا التكرار! وماذا يريد؟! إن هنا سرّاً كامناً
 ربما لا يدركه غيره مع كل محاولات الاجتهاد لدينا، ويستمر الشاعر في رسم خطوط
 أخرى للصورة بريشته الدامية، وتبلغ قمة المأساة في العرض حين أبكى عليه الأرض،
 قائلاً⁽⁴⁹⁾:

ومحمدٌ في حضن والده يموت...
 فبكته كل الأرض يومَ رَأَتْهُ يُقْتَلُ هكذا،
 فتَدَقُّ أمريكا لها جرسَ السكوت

فالشاعر بكى واستبكى، والأرض تبكي حقيقة، وهذا ما جاء في القرآن الكريم «فَمَا
بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ»⁽⁵⁰⁾.

وإذا كانت الأرض قد بكت الشهيد الطفل كما بكاه من على الأرض من العرب
وغير العرب إلا أمريكا، بمعنى أن الشاعر استبكى الكون كله إلا أمريكا بقيت متبلدة
الحس متجمدة المشاعر أمام جريمة العصر، وبالنفس الشعري الساخر نفسه تتدفق أسطر
أخرى تسيطر فيها اللوعة على الشاعر، فيقول⁽⁵¹⁾:

برميل صاج يا محمد لا يرد جنودهم أو يستر،
عشرون جيشاً في العروبة يا محمد حولنا،
أو ربما هي أكثر....،
كانت تراك وتنظر....،

فلهجة الشاعر تبدو ساخرة أيضاً، ولعله يقصد بها جند العدو حيث يطلقون
رصاصهم على مانع هزيل مجرد برميل من الصاج، يا لسخافة الموقف!!!، ولكن
الأسخف من ذلك كله تفاهة الموقف العربي الذي يمتلك هذه الحوافل العديدة عشرين
أو أكثر من الجيوش، لكنها رغم فظاعة المشهد لم تحرك ساكناً بل بقيت زائغة
النظرات، مشدوهة اللفتات. أجل إن جانب السخرية اللاذعة واضح وضوح الشمس في
قوله⁽⁵²⁾:

أتريد برميلاً يسد مكانها أو يقدر،؟
أو كنت تعرف سرها؟
في أنها لا تنفر....

نُفرت لتحرير الكويت جيوشها،
أما لنا فالصمت فيها أبلغ...

أما عن القدس الأسيرة أرضها،

فجيوشها قد تصبر...،

إنها سخرية قاتلة تحرك الحجر الصلد، ويوجه الشاعر خطابه مرة أخرى إلى صغيره الشهيد حيث إنه كان على علم ودراية بموت أحاسيس هذه الأمة، ولعل في ذلك عزاء للشهيد لكنها كما يقول الأقيشر الأسدي⁽⁵³⁾:

سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يَلْطِمُ وجهَهُ وليسَ إلى داعيِ الندى بسريع
حريصٌ على الدنيا مُضِيعٌ لدينه وليسَ لـا في بيته بمُضِيع

ولقد نفرت هذه الحجافل العربية لتحرير الكويت، ولكن ممن يا ترى؟ ومن حركها لذلك؟ والشاعر يعتبر ذلك سراً غامضاً أيضاً لا يقوى على إمطة اللثام عنه. إنه من خصوصية الشاعر، وهكذا يستمر في لهجته الساخرة ولكنه هنا يسخر من الجيوش العربية التي ضلت المسير في توجيهها ذلك التوجه الخاطي، فكان الأولى بها أن تتوجه إلى القدس الأسيرة لكنها لا تفعل. ويعاود الحديث إلى الطفل الشهيد مهدداً إياه بقوله⁽⁵⁴⁾:

نم يا محمدُ ريثما ألغازنا تنفسرُ،

الأمرُ مختلفٌ هنا،

الأمرُ يحتاجُ التحالفَ كلُّهُ،

من أينَ قد نأتي به،

وجهودُ أمريكا هناك مع العدو تدبرُ،

نم يا محمدُ فالتحالفُ سرٌّ لا ينشرُ...

فلتنم أيها الصغير ريثما تقوى على تفسير هذه الألغاز، فالقضية خطيرة والأمر شائك والمسألة تحتاج إلى تجمع عربي ليس إليه من سبيل في هذا الزمان لأن أمريكا تقف بالمرصاد للتحالف العربي المنشود، فلتنم يا محمد لأن هذا التحالف سر ليس هذا

زمان نشره. ويعود الشاعر يذكر الطفل الشهيد بأن أمريكا هي الداء ورأس البلاء في
قضيته وقضية شعبه. وفجأة يقفز الشاعر فوق جراحه متوعداً العم سام بالعقاب القادم لأ
محالة بقوله⁽⁵⁵⁾:

نم يا محمدُ فالتحالفُ سرُّه لا ينشرُ...
قتلتك أمريكا بجندٍ حليفها،
سيطالُ أمريكا العقابُ وأنها،
في موضع الأرض الذي قتلوك فيه ستُقتلُ...
وستخرجُ...

وجلالها في الأرض حولك يُقبرُ...
إنَّ العقاب سيطال أمريكا رغم عظم قوتها وعلو مكانتها، فهي ستلاقي وبال أمرها
في الموقع الذي سفح دمك فيه، واحدة بواحدة والبادي أظلم، إن هيبتها ستزول بإذن
الله.

أمل يداعب أجفان الشاعر في ميلاد الآلاف المؤلفة من الثوار الجدد الذين سيثأرون
لمحمد، فيقول⁽⁵⁶⁾:

الآن يولدُ من دمايك ألفُ ألفُ محمدٍ،
نهرٌ على كفيك يجري ماؤه يتدفقُ...
ويتيهُ مجداً لوئهُ القاني على طرقاتناذ،
موجائهُ أزليةٌ تتسابقُ...
أرأيتَ أين مكانهُ سيلُ الدماءِ على الثرى،؟
مليون أغنية ستنبثُ في مكانك تورقُ...

عطشاً إليك صحراء العروبة تشتهي،
ماءً يبُلُّ حريقها، تتشوق...
عبرت إليها من دمايك جرعة،
الآن تزحف قرب عروشنا تتحولق...

فهؤلاء الثوار الجدد هم الذين سيفجرون أنهار الثورة والحرية أنهاراً نابعة منذ
الأزل، وسيغني الوطن العربي ملايين الأغاني الثورية الجديدة التي ستسجل أكاليل
النصر، ولربما تشرق الأرض بنور التحرير وتهتز لتخرج الخضرة وطيب الغاني،
فيقول⁽⁵⁷⁾:

بردى يسيل بمائه،
والأرض حول مداره تتشقق...
والنيل في واديه في الشطرين يعطش يشهق،
والآن دجلة للفرات يبتئ،
وجع السواقي الواقفات يُورق،
نم يا محمد في الجنان وظلها،
والماء فيها صافياً يترقق...
وينى الأفاعي في جهنم تُحرق...

واضح أن الشاعر يُسخّر عناصر الطبيعة من نهر وشجر وسواك لتعزف جميعاً أغنية
النصر، الأمر الذي يجعل الشهيد ينال قرير العين في جنات الخلد، جنات تجري من
تحتها الأنهار، أما بنو الأفاعي فمصيرهم النار وبئس القرار.

المحور الرابع: محور السراب:

ما أشقى شاعرنا الظامئ، الذي حسب السراب ماءً فأخذ يتلمس جراح شعبه
ليقف على عمق هذه الجراح التي طالما فتش العرب عنها، فيقول⁽⁵⁸⁾ :

كُنَّا نَفْتَشُ فِي مَجَالِ جِرَاحِنَا،
كَيْفَ النِّصَالُ تَغُوصُ فِي أَحْلَامِنَا،
كُنَّا سَنَحْلُمُ فِي الْمَنَامِ بِقَمَةِ عَرَبِيَّةٍ،
فِيهَا الْمَرَاقِبُ تُحْرَقُ...،
كُنَّا سَنَحْلُمُ فِي الْمَنَامِ بِغَزْوَةٍ،
فِي صَحْوَةِ الْمَدْرِ الْقَلِيلِ لَمَائِنَا،
كَادَتْ مَرَاقِبُنَا تُوَارِيهَا الثُّقُوبُ وَتَغْرُقُ...،
كُنَّا سَنَحْلُمُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ أَنْ نَبْيِّئَنَا فِينَا يَعُودُ،
فِي الصَّبْحِ أَيْقَظَنَا الْيَهُودُ،
كُنَّا سَنَنْسِي أَنْنَا،
فِينَا انْتَهَتْ رَسْلُ السَّمَاءِ إِلَى الْعَبِيدِ...،
كُنَّا سَنَحْلُمُ لَيْلَةً يَأْتِي لَنَا فِي غَفْلَةٍ،
رَجُلٌ وَذُو بَأْسٍ شَدِيدٌ...
وَيَقُودُنَا جَنْدًا لَهُ نَنْسَاقُ فِي عِزِّ الْأُمُورِ،
كُنَّا سَنَنْسِي أَنْنَا مَخْصِيَةٌ فِينَا الذُّكُورُ...
كُنَّا سَنَحْلُمُ فِي الْمَنَامِ بِأَنْنَا...،
لَكِنَّا ظَلَّتْ مَرَاقِبُنَا عَلَى رَمْلِ الشَّوَاطِي تُبْحَرُ،
لَمْ يَأْتِنَا الْحَلْمُ الْعَتِيقُ فَتَعْبُرُ...

ها نحن من حول المراكب نستظل ونعشق...

نم يا محمد ريثما أحلامنا تتحقق...

تدور الأسطر السابقة حول جراح الشعب الفلسطيني، إنها جراح غائرة فعلاً، فقد غاصت النصال إلى مدى بعيد حتى أحلام شعبه قد قتلت، والقسم العربية لم تحقق لشعبه شيئاً ولا لغيره من الشعوب العربية، فمراكب الخلافات لم تحترق بعد، لم تحدث غزوة ذات بال في فترات المد القليلة للصحو العربية، فالسفينة العربية المثقوبة (لكنها لم تثقب بأيدي الخضر من أجل السلامة)، ولكنه ثقب غائر لجراحنا الغائرة. فقد طال حلمنا في أن تصلح هذه السفينة المثقوبة ولكن عبثاً عبثاً كانت المحاولات...

والرسول لم يعد في ليلة الإسرائاء، فبدل عودته فاجأتنا جحافل اليهود، ترى ما الذي يقصده الشاعر بعودة النبي في حلمه الإسرائيلي؟! النبي لا يعود، كما ورد في الأثر، ولكن الذي يعود هو المنقذ Savior كما يقول الغرب، ترى أيقصد الشاعر ذلك؟! أم أنه يقصد صحو إسلامية فاعلة...؟!

إن الشاعر الملتاع يتحسر على حلمه الذي تبدد وعلى الحقيقة المرة من أنه لن تنزل رسل السماء إلى أمة منحطة (في مرحلة الضياع والهوان) ويتحسر كذلك على انعدام رجل ذي همة سيقودنا إلى النصر محاولاً أن ينسى أو يتناسى ما وصل إليه حال الرجال الذين استنوقوا كما تقول العرب. لقد خصيت فينا الذكور وإن كان كافور الأخشيدي⁽⁵⁹⁾ ذلك الخصى قد خلف مجداً وترك نصراً تغنت به الأجيال في تاريخ العصور الوسطى، أحلامنا كلها تبددت ومراكبنا راسية على الشطوط لم تدفعها أعاصير المآسي ونحن حولها نتباكى على مجد مضى. نم يا محمد أيها الشهيد الصغير فلعل أحلامنا تتحقق. وانطلاقاً من هذه الجراح العميقة يصرخ الشاعر بأحلامه وأحلام شعبه المتكررة في خمسة أسطر تكشف عن الأثر البالغ الذي تركته تلك الجراح العميقة للشعب الفلسطيني في نفس

الشاعر. وإذا كان الشاعر يستخدم (كنا سنحلم) فإنه يكثف من ذاك الحلم في الصياغة؛ ليمنحه امتداداً حضورياً يواجه به تلك الجراح التي أصيب بها شعبه، فالجراح قد وقعت حقيقة لأبناء شعبه، لكن الأثر الذي تركه تكرار الحلم ما زال حاضراً وممتداً في قمة عربية، في غزوة، في عودة النبي صلى الله عليه وسلم، في عودة رجل شديد، في أشياء كثيرة لم يذكرها مستعيضاً عنها بكتابة بعض النقاط لعل المتلقي هو الذي يشارك الشاعر في ذكرها.

فالتكرار هنا يبدو ذا دور أساسي في تركيبة الأسطر، فالحلم في كل مرة يتصل بجديد، وإن كان هذا الجديد أو ذاك له علاقة مباشرة بالجراح التي أصيب بها أبناء الشعب الفلسطيني أو غيره مباشرة، فهي جميعاً أوجه متعددة لحقيقة واحدة هي (جراح الشعب الفلسطيني) ومن طبيعة هذه الوجوه المتعددة للحلم الذي عاشه الشاعر وشعبه أن توسع من الدائرة الدلالية وتجعلها تضم أكثر من حقل دلالي في دائرة دلالية واحدة. وإذا كان الشاعر قد أطلق العنان للحلم في المرة الأخيرة فإن الطاقة الدلالية المطلقة التي تصاحب هذا القول هي خاصيته التي تميزه عن غيره في المرات السابقة، إذ كان الحلم محدوداً ومقصوراً على القمة العربية في المرة الأولى، وعلى الغزوة في المرة الثانية، وبعودة النبي ليلة الإسراء مرة ثالثة، ومجيء الرجل ذي البأس الشديد في المرة الرابعة، أما المرة الخامسة والأخيرة فقد كشفت عن تعقيد عملية الحلم الفلسطيني وما يقوم به الشاعر من جهد وعناء في تحرير كلماته من محدودية الدلالة وقيودها التي تفرضها الكلمات عبر السنين، لأن "الشاعر لا يقدم للكلمة معنى جديداً، وإنما هو يعلقها خفيفة رشيقة فقط، ويتركها تضع نفسها في ذهن القارئ، حيث تتحول إلى دال يرمز إلى دلالات متنوعة ومختلفة حسب قدرة قارئها على ذلك"⁽⁶⁰⁾.

فقد جعل هذه المرة الحلم ضمن فضاءات نصية لا متناهية إذ تجاوزت الصياغة، واستعاض عنها بنقاط، وكأنما أراد بتلك النقاط أن يتصل الحلم بالمكون الثقافي والفكري

للمتلقي بحيث يثير فيه العنصر الغائب إحياءات متعددة في ذهنه تضاف إلى فضاءات النص الشعري. فإذا كان الحلم هنا غير محدد فإن العلاقات الإيحائية هنا ترتبط بالمحور الاستبدالي حيث تثير مجموعة أخرى من الكلمات لها علاقة قريبة أو بعيدة بها، وهذه الكلمات "مقرها الذهن حيث تمثل جزءاً من الكنز الداخلي الذي تتكون منه لغة أي فرد"⁽⁶¹⁾ وهذه التنوعات الدلالية اللا متناهية تضاف بطبيعتها إلى فضاءات النص غير المحدودة مما يجعل القول الشعري أكثر انفتاحاً وأعظم أثراً، فلو تحققت هذه الأحلام لأبناء الشعب الفلسطيني ما كان الذي كان، أي ما كان مقتل الطفل الشهيد محمد الدرة فاجعة الأمة.

ويستعرض الشاعر صورة الجريمة البشعة التي اقترفتها أيدي الجنود الإسرائيليين الذين لم يفرقوا بين طفل وشيخ - عبر بث وسائل الاتصال المرئية وغير المرئية، إنها صورة مفزعة وجريمة لا يستوعبها العقل، فقال⁽⁶²⁾:

بَتَّتْ لَنَا الْأَقْمَارُ مَوْتَ مُحَمَّدٍ،
 صوراً على الشاشاتِ تُذهِلُ مَنْ رَأَى،
 وكما رأينا أُمَّةً كانت ترى...،
 ولقد رأتْ هولَ الحقيقةِ والطريقةِ والجريمةِ كلها،
 ورأتْ حثالاتِ الجنودِ يحاصرونَ صغيرَها...،
 وكأنهم جندٌ ليوشحَ في أريحا تَحْرِقُ...،
 أو أنهم جندُ الفرنجةِ يذبَحونَ الناسَ -
 في قلبِ الحرم...
 في حروبِ الدينِ في العصرِ الوسيطِ،
 يا أمَّ ما كانوا فرنجةً للصليب...،

كانوا من العهد القديم....،

والأم مثل محمد لم تقرأ التلمود بعد فتعرف،

وقد ركز الشاعر على أم الفقيد المفجوعة التي كانت تتابع الصورة من بدايتها إلى نهايتها، وكيف أن القتلة من الجنود الإسرائيليين حاصروا الطفل الصغير محاصرة نبي الله (يوشع)⁽⁶³⁾ لمدينة أريحا مع فارق التشبيه، فذاك نبي فاتح بأمر الله، وهؤلاء قتلة بدوافع الشيطان، ويستعيد الشاعر جريمة اليهودي الإرهابي "باروخ غولدشتاين"⁽⁶⁴⁾، فاستحضار هذا الحدث من عمق التاريخ وقربه، وما عرف عن اليهود من قتل الأطفال الأبرياء والنساء الحوامل إنما يأتي من باب عرض الحقيقة التي غابت عن الكثيرين، حقيقة اليهود وإجرامهم وجرائمهم التي يقتربونها يومياً ضد أبناء الشعب الفلسطيني، ويكاد يتطابق موقف هذا اليهودي الذي أودى بحياة العشرات من المصلين المؤمنين الفلسطينيين في الحرم الإبراهيمي، وما عرف عنه وعن اليهود من سفك الدماء وارتكاب المجازر مع موقف الصليبيين الذين قتلوا المسلمين في المسجد الأقصى كما هو معروف في العصور الوسطى.

ويلفت الشاعر نظر أم الشهيد إلى أن الأمر مختلف، فالقتلة اليوم لم يكونوا فرنجية الأس مع أن الصورة واحدة، بل إنهم يهود يدفعهم التلمود كتاب العهد القديم الذي لم تقرأه الأم مثلما هو الشأن مع صغيرها الفقيد كما أن المشاهدين العرب لم يقرأوا التلمود بعد ليعرفوا؟؟!!

ولا يكتفي الشاعر بالوقوف على أطراف الحديث عن اليهود، بل يتعمق في دائرة الحديث عن بشاعتهم فعلياً وأمام العالم جميعاً، وأمه واحدة من الأمهات اللواتي شاهدن بأم أعينهن تمزيق جسد هذا الطفل البريء برصاصات الحقد اليهودية، فيقول⁽⁶⁵⁾:

والأمُّ مثلُ محمدٍ لم تقرأ التلمودَ بعدُ فتعرفُ،
ورأت محمدًا يستغيثُ وينزفُ،
ورأت رصاصاتٍ تمزقُ صدره،
ورأته كيفَ يميلُ من وجعِ الخلاصِ ويرتمي،
في حضنِ والده يروحُ ويحتمي...
لكنها قد لا تعيشُ لساعةٍ فيها ترى
عدلَ القصاصِ وترتجي...
أو أنها تتخيلُ...

أجل يستعرض الشاعر الصورة البشعة للجريمة، طفل يستغيث ورصاصات الغدر تمزق صدره، جريح يرتمي في حضن والده عله ينجو ولكن لا مناص حين مناص، إلا أن هذه الأم قد لا يمتد بها الأجل لتري تنفيذ القصاص العادل للمجرمين الحقيقيين، وتصبح الأم مشلولة الإرادة والقوة شأنها شأن الأمة العربية التي رآها الشاعر في شخصها، بقوله⁽⁶⁶⁾:

فيكِ العروبة أُمَّة تتمثلُ،
وتلفتتْ نحو اليمينِ بعينها،
وتلفتتْ نحو الشمالِ لعلها،
قد تطفئُ النارَ التي في جوفها،
فوقَ الفؤادِ حريقُها يتغلغلُ...،
هيا ارفعي لله وجهك باليدينِ تضرعي،
وهو الذي فوقَ الفؤادِ رباطُهُ يتكفلُ...،

كلُ العروبةِ كُلُّها،
 صارت كمثلِكِ كُلُّها تَتَلَفَّتُ،
 نحوَ السماءِ دعاؤها يتواصلُ...
 إعدامُ طفلكِ تشهيدِهِ مصوراً،
 فوق المرائي كلَّ حينٍ يُذهِلُ...
 إعدامُ طفلكِ تسمعيهِ يزلزلُ...
 في عصرِ أمريكا التي من عارها لا تخجلُ،
 ترعى السلامَ وتقتلُ،

تتحرك الصياغة نحو إبراز المعاناة التي تعيشها أم الشهيد، وتمثل العروبة في أم الشهيد يعطيها أهمية تؤهلها لأن تصبح محوراً تدور حوله الدلالة في الأسطر السابقة التي اعتمد فيها الشاعر على إجراء مقابلة بشكل واضح وملموس سواء على المستوى الدلالي أم على المستوى اللفظي، فالتقابل اللفظي يتمثل في التلفت الذي يعني الحيرة والقلق بالنسبة للأم وللعروبة جمعاء والتضرع للخالق سبحانه وتعالى، أما التقابل الدلالي والذي يقع في الأسطر هو حال الأم وحال العروبة كلها عند مصرع طفلها، فيالها من أمة مقهورة عاجزة عن أن تمد يد النجدة للشهيد الصغير.

فهذه الأم الحائرة تتلفت يمنة وميسرة لعلها تجد شيئاً تطفئ به نار الغضب التي تأججت في كبدها، ولكن ليس أمامها إلا الرجوع إلى الله والتضرع إليه، فهو حبل الله المتين والرباط القوى حين تُغْلَقُ أبواب البشر.

ويستمر الشاعر في مخاطبة هذه الأم معزياً بأن حالك الحائر هو حال العرب كلهم، فكلهم يتلفتون ذات اليمين وذات الشمال، ومرة إلى السماء، وأخرى إلى الأرض. فإعدام طفلك مشهد مصور رآه الراؤون في كل حين، وهو مشهد مزلزل باستثناء دولة واحدة "تمسحت" أو

تبلد حسها أمام هذا المشهد حتى المسامير لم تخترق ضميرها المتبدل، ولكن إذا لم تستح فافعل ما تشاء. والمتناقضات العجيبة من وجهة نظر الشاعر أن تقولوا ما لا تفعلون، أمريكا تدعى السلام وتقتله في نفوس الأمة، تدعى السلام وتنتزع البسمات من شفاه الأطفال، فأى سلام هذا الذي ترعاه أمريكا التي ما عادت تخجل من عارها؟!.

لقد آلمت أمك أيها الفقيد وأوجعتها وجعاً شق الصدور، وذبح النحور، وأفقر قلبها كفراغ قلب أم موسى عليها السلام إلا أن الله ربط على قلبها كما ربط على قلب أم النبي موسى عليها السلام. فيقول⁽⁶⁷⁾:

أوجعتَ أمَّكَ يا محمدُ هكذا،
أوجعتها وجعاً يشقُّ الصدرَ يذبحةً -
ويعضُ بالناَبِ الحشا يتجولُ...
ويكادُ يفرغُ قلبَها،
لولا رباطُ الله فوقَ فؤادِها...
هي لم تجد عرشاً ولا جيشاً ولا زمناً
فيصغي سمعهُ،

ويستمر الشاعر في عرض تعازيه لأم محمد، ويفجر طاقات الإيمان في قلبها، ويطمئننها بأن الله سيفرغ عليها صبراً، وسيقتص من القتلة الفجرة، وإن طال المدى فأنت قد استجبت لنداء القدس الأسيرة، فقدمت ابنك الغالي على مذبح الحرية حين تراجع الملوك وجبن الأدعياء ممن يسمون صناديد العرب، فيقول⁽⁶⁸⁾:

يا أمُّهُ ربي وربكِ يُمهِلُ
أو إنها القدسُ الأسيرةُ في غيابِ ملوكنا
نادتُ عليك ديارُها تتظللُ...

ويربط الشاعر بين تعازيه لأُم محمد وطمأنة الشهيد الصغير فيقول⁽⁶⁹⁾:

نم يا محمدُ فالزمانُ هو العجيبُ ويسألُ،
 عشرونَ جيشاً تختفي بحديدها لا تصلحُ،
 واللحمُ في هذا الغيابِ هو الحديدُ ويقدحُ...
 في عرفِ أمريكا فإنَّ محمدًا هو معتدٍ،
 وبدونِ إذنٍ في شوارعِهِ هنا يتجولُ...،
 بقنابلٍ ذريةٍ في كفهٍ يتسللُ...،
 ومحمدُ إرهابه لا يوصفُ...
 فهو الذي قتلَ الجنودَ ويُسرفُ،
 وهمُ الضحيةُ كُلُّها وشيوخُ أمريكا شهودُ،
 وشيوخُ أمريكا بكلِ سفالةٍ ونذالةٍ ووقاحةٍ
 قد لفقوا ولصالحِ العدوانِ فوقَ ترابنا
 وشيوخُهُم هم شرُّ خلقِ الله في الدنيا وأكذبُهُم بها،
 وسجلُّهم بالخزي دوماً يطفحُ...،
 والظلمُ يهدرُ من ثمودُ...،

تتحرك الصياغة نحو إبراز دور القدر في نهاية الأمر لطمأنة الشهيد الصغير، فالقدر هو الذي سيثأر له، فعشرون جيشاً لم تأت بشيء يوازي اللحم الغض الطري الذي قدمه محمد الصغير وقوداً للمعركة ليعتبر في نظر أمريكا معتدياً بغير وجه حق فكيف له بذلك؟! ويا للعار أن يتجول في شوارع مدنه وقراه بلا إذن مسبق من المحتلين، وكل ذلك على سبيل السخرية والتهكم..

ويستمر الشاعر في عزفه على قيثاره الاستهزاء من أهل هذا الزمان العجيب، فالطفل يتصدى للمعتدين بقنابل ذرية وبروح إرهابية تقتل الجنود وشيوخ أمريكا شهود على هذه المهزلة والمعادلة المقلوبة، لكنها شريعة الغاب تقلب الحقائق وتلفق الأحداث، ويصب الشاعر جام غضبه ونقمته على مجلس الشيوخ الأمريكي اللوبي الصهيوني الكاذب ليكشف زيف سجلهم وخزي تاريخهم، فهم ظلمة ثمود الذين أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون.

وتبرز ذات أمريكا وشيوخ أمريكا تعيد التاريخ الأسود لطواغيت الأرض وحشية في كل مجالات الحياة، فمرة تتقمص ثوب النازية الهتلرية، ومرة ترتدي عباءة الصرب في فتكها بالمسلمين كما في قوله⁽⁷⁰⁾:

ولقد علت في الأرض أمريكا وتنتهك الحقوق،
وحشية، نازية، صربية أفعالها،
نم يا صبي فربما قد كان موتك يستعد به القدر.
رايات أمريكا ستسقط بالحجر...،
وسنفتصر...

تعكس الأسطر السابقة صورة حقيقية أراد الشاعر توصيلها للشهيد محمد، والتي أراد من خلالها أن يقول له هذا هو حال زماننا يا محمد فلعل في موتك تحريكاً ليد العدالة، لعل وعسى...

لقد أزفت نهاية أمريكا على يد طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، ويجتر الشاعر مأساة شعبه تارة أخرى لعله يطمئن الشهيد محمداً بهذا السلسل الذي لم ينته بعد، ويخبره بأن حاله هو حال مئات الآلاف من الفلسطينيين، أو حال جيش الشهداء ومواكبهم التي لم تنته في طول البلاد وعرضها في البحر والجو، وفي السهل والوعر. فشعبه يعاني منذ خمسين عاماً كما في قوله⁽⁷¹⁾:

خمسون عاماً يا محمد نُقْهَرُ،
 خمسون عاماً يا محمد نصبرُ...
 جيشاً من الشهداء في طول البلاد وعرضها،
 حتى الفياقي والثغور...،
 خمسون عاماً كلها ومن الحصار إلى الحصار رحيلنا،
 هذا مذاك...،
 والآن فوق الأرض أنت تحاور...،
 دمناً يحاورهم ويكسر سيفهم،
 حجرٌ يحاور في المدافع والدروع...
 هذا مذاك المر ما يبقى هواك،

تبدو النبذة المأساوية مسيطرة على الشاعر في هذه الأسطر، وهو يشكو ويناجي
 محمداً بأن شعبه ما زال يتجرع كأس المر منذ خمسين عاماً، تهجيراً وترحيلاً وحصاراً
 وتضييقاً، وأنت الآن عنصرٌ جديدٌ تحاور الأعداء بدمك وتحطم سيوفهم الحديدية على
 صخرة إرادتك وعزيمتك القوية، يا للمهزلة!! أيجوز أن يحاور الحجر مدفعاً؟ ولكن
 ذلك هو أقصى مذاك أيها الجندي الصغير.

ويشكو الشاعر حالة الضعف التي يمر بها هو وشعبه، فهم لا يملكون ما يصدون
 به هذا الزحف الإسرائيلي الذي أخذ يصول ويجول دون مانع في طريقهم، فيقول⁽⁷²⁾:
 من أين لي دبابةٌ طيارةٌ تحميك أو تمضي هناك...

ما عاد لي منها سواك،
 جلدي ولحمي والضلوع وكفناً،

هيَ حصنُنا...،

هانحن نشهدُ أن جرحك أكبرُ،

هو أوسعُ...

هانحن نشهدُ أن أمكَ فوقَ ضعفِ ملوكِها هي أشجعُ...

هانحن نشهدُ أن أمتكَ الكبيرةَ كُلَّها

وجيوشُها تتسكعُ...

تبرز الأسطر السابقة العجز الكامل للشاعر ولشعبه، فيوجه الخطاب إلى ذاك الجندي الصغير فيقول له: لقد عزت عليهم الدبابات والطائرات لتحميك أيها الشهيد ولتنطلق إلى هناك ما وراء الحدود. إن هذه الأسلحة مجرد أحلام لا أقبض على شيء منها سوى جسمك النحيل الذي مزقته أفاعيل المجرمين.

يا شهيدِي الصغير إنني مثلك ليس إلا، فجلدي ولحمي كشأنك أنت أتراه حصن هذه الأمة!!! وإن جراحك كبيرة كبيرة في ميزان العدالة وواسعة سعة هذا الملكوت، وأمك أشجع من الملوك، وأمتك تتسكع بكل تفاهة وخسة في شوارع الوطن العربي الكبير. فالشاعر يسخر من قوة الجيوش العربية الكرتونية، وكأنه يذكرنا ببطولة فارس الأحلام "لدون كيشوت" ويطمئن الشاعر شهيدَه الصغير محمداً بأسلوبٍ ساخرٍ لاذع، فيقول⁽⁷³⁾:

نم يا محمدُ ريثما الحكامُ تَسْمَعُ تبصراً،

أو أنه جيشُ العروبةِ قد يشاءُ فيظهرُ...

ألقِ السلامَ تحيةً منا على شهدائنا،

أبلغُ أميرَ القومِ فيهمُ أننا مِن بعدهمُ،

دربُ الشهادةِ عندنا يتواصلُ...

وإذا سُئِلَتْ عن العروبة كيف صارَ بحالِها؟!

قل إنها ظلت كما كانت على أيامكم...

أو ربما هي أرذلٌ...،

تتحرك الصياغة نحو إبراز السخرية اللاذعة حيث أراد الشاعر أن يطمئن شهيد الصغیر بهذا الثوب الساخر، فتكون السخرية ذات أهمية تؤهلها لأن تصبح محوراً تدور حوله الدلالة في هذه الأسطر. فيطلب الشاعر من محمد الصغیر أن يركن إلى النوم الطویل ریثما یفیک الغافلون من حکام العرب، أو تتململ جیوش العروبة لتظهر من جدید في الساحة، وهو یطلب إیصال تحية المناضلين إلى جموع الشهداء المناضلين، ویخص بالذكر أمير الشهداء مطمئناً إياه بأن الدرب متواصل وأننا لن نکل ولن نمل، فموکب الشهداء تترى کالسيل المنهمر، وینبئه بأن حال العرب لا تسر عدواً ولا صديقاً، فهي کعهدکم بها ذل في ذل، بل إن الحال الیوم أسوأ مما کان علیه. فیقول⁽⁷⁴⁾:

وإذا سُئِلَتْ عن السلام فَقُلْ لَهُمْ

أین السلامُ مکأنه

وقوافل الشهداء تمضي نحوکم بدمائها تتجمل...

وإذا سُئِلَتْ وكيف أمريکا تقومُ بدورها،

قل أنها فوقَ الرقاب الصاغرات عروشها،

وعروشنا تتوسل...

قد یسألونک عن الفصائل کُلِّها،

عن وحدةٍ وطنیةٍ في شعبنا،

فيها الرؤى تتعدد...

قل إن بعض فصائلي يتعيشون على جراح أكفنا

وتزايد...،

يستخدم الشاعر أسلوب الحوار في بناء الحدث ليعطيه بعدا دراميا يرسخ في ذهن المتلقي، فتتجسد المأساة في السطر الثاني عند إجابته عن السؤال الموجه إلى الشهيد محمد عن مكان السلام فتكون إجابته ذات دلالات سلبية إذ يجيب بسؤال ساخر مفاده أين السلام مكانه؟ إن السلام الذي يتغنون به يا محمد هو سلام وهمي، كيف يلتقي وقوافل الشهداء لا تتوقف، أما أمريكا الصديقة وزعمائنا الأعزاء فدورها فاضح ومكشوف، فهي قد نصبت عروشها فوق رقابنا الصاغرة شأنها في ذلك شأن عرش إبليس على الماء كما يقولون. أما عروشنا فهي عروش خدم أذلاء لا تكف عن التوسل، إن الفضائل والمروءة لا مكان لها بيننا. والبعض يدعي أن ثمة وحدة وطنية، وميثاقا يجمعنا، ولكن الحال يفضح هذا الزيف، فهناك من الفصائل من يزايد على الجراح ويزايد كثيرا.

وإذا كانت بعض الفصائل تدعي أن هناك وحدة وطنية ليتعيشوا على جراح أكفنا، فإن هناك من يغالي في تكفير الأمة كلها مغالات الخوارج، كما في قول الشاعر⁽⁷⁵⁾:

والبعض يلحق بالخوارج تارة ويكابد،

لكننا نمضي نشق طريقنا،

والدولة الحلم التي في خاطري،

صارت على الأبواب يدنو قربها،

في لحظة تتماثل...،

الآن أنت بقرب ربك تحتمي،

نم يا محمد ريثما يعلو نداء القدس فوق مآذني،

يتهلل...

يبدأ الموقف الشعري باستعادة تاريخ الخوارج من خلال استدعاء مواكب لغرض الشاعر الدلالي في هذه الأسطر حيث قام باستدعاء الخوارج من خلال الدور فقط بوصفه خلفية تراثية مصاحبة، في حين أنه قد صرح باسم بعض الأمة العربية المباشر حتى يكون في بؤرة اهتمام القارئ، بوصفه عنصراً يهيمن على دلالة الأسطر⁽⁷⁶⁾، فاستدعاء الشاعر للخوارج هنا جاء من خلال دورهم المشهور في تكفير الأمة كلها فما أشبه الليلة بالبارحة، أيكفر عليّ والسيوف ما زال صليلها يصم الآذان والمركة على أشدها، فليس الزمان زمان تكفير، إلا أن القوافل تسير والشعب يشق طريقه، وهنا نلمس أن الشاعر شرع يحلم في دولة آن أوانها ودنا وجودها، ويربط ربطة سريعة روحانية تتمثل بتمتع محمد الشهيد برضوان الحضرة الإلهية وتمتع الشعب بإمكانية ميلاد دولة ليتبوأ فيها حيث يشاء ونعم أجر العاملين. ويستمر في طمأنته للصغير محمد بأن ينام هادئ النفس قريب العين حتى يسمع في مثواه الأخير صوت الله أكبر فوق مآذن القدس ودق النواقيس في كنائس القيامة والمهد. وتتفجر - هنا - عاطفة الشاعر ويبلغ ذروة إبداعه إذ وصل الحال به إلى أوج الانفعال فخرج عن طوره منادياً الشهيد محمد بقوله⁽⁷⁷⁾:

آه محمدُ لو تُجَنَّ عروبتني في قمةٍ ولرة،

ويقالُ قد جَنَّ العربُ...،

وتموتُ حكمتُنَا ونفقُدُ صَبْرَنَا،

أو تختفي كل الحسابات الصغيرة والكبيرة عندنا،

ينتأبُنَا غضبٌ شديدٌ في المدائن والقرى،

لقد خرج الشاعر عن طوره وكاد يفقد عقلانيته حين أخذ يصرخ بأعلى صوته

منادياً على محمد بحسرة ولوعة ومرارة معزياً لمحمد ومتمنياً أن تجن هذه العروبة ولو

مرة واحدة في قممها المتلاحقة التي لم تجلب إلا الغمة ساخراً بهذه الأمة، وليقل الناس أن العرب قد جنوا ونفد صبرهم ولتسقط كل الحسابات من الأجندة والملفات صغیرها وكبیرها، ألا ولنسلم أنفسنا يا محمد لمطية الغضب مع أن ديننا لا يدعو إلى الغضب، فالغضب يفقد التوازن ولكن لا بُدّ مما ليس منه بُدّ.

ومرة أخرى تطفو على سطح الأسطر صرخة الشاعر الذي بلغ انفعاله مداه، فلم يعد قادراً على كبج جماح نفسه، فراح يصرخ مرة ثانية لتذهب القرى والمدن في حركة غاضبة، فيقول⁽⁷⁸⁾:

آه محمد لو يقاوم جمعنا،
في كل أقطار العروبة نلتقي
ومن المياہ إلى المياہ عروبتی تتبایع...،
لرأيت أمريكا العظيمة كلها مع حلفها تتراجع...

يتمنى الشاعر في تعازيه لمحمد هبة عربية تغطي كل الأقطار وتلتقي هذه الجموع في طوفان كاسح من المحيط إلى المحيط ومن البحر إلى النهر ليبايع بعضها بعضاً على الثأر، حينها تتراجع أمريكا وتحسب لهم ألف حساب، ويكرر الشاعر دعواه بركوب مطية الجنون، فيقول⁽⁷⁹⁾:

هيا نجن عروبتی أو ندعی،
هذا الجنون يردهم عن حرمتي،
هذا الجنون أمام حكمة ذلنا هو أجمل،
قد جن في اليرموك خالد قبلنا،
صرنا نقود العالمين ونعدل...

كل الذي نخشاه صار حقيقةً تتماثلُ،
 لا حلَّ إلا أن نجنَّ لمرةٍ أو مرتين ونعقلُ،
 وغداً ترى قطعائهم مثل الطرائد في العراءِ تولولُ،
 نم يا محمدُ ريثما نحو الجنون جموعُنا تتحولُ...

وتميل المعزوفة المتوهجة والمتدفقة بانفعالات الشاعر فدعا لركوب مطية الجنون الذي أصبح في نظره هو الوسيلة الوحيدة الكفيلة بالذود عن الحياض، وهو الشيء اللطيف أما الحكمة المذلة التي ندعيها وما هي بحكمة. إن أمتنا لن تقرأ سيرة الفتوح، وسجل المغازي، ويوم اليرموك بخاصة، فيومها جن ابن الوليد ولكنه جنون بفن خاص كما يقولون: "الجنون فنون"، هو جن ليصب نغمته على الروم ولكنه كان واعياً لصوت الله، ويومها دانت له الدنيا وجاءته صاغرة وقادوا العالمين. إن كل الحلول جربناها هكذا يقول الشاعر إلا حلاً واحداً وهو حل الجنون، ألا فلنجربه مرة، وحينئذ يصبح الأعداء طرائد صيد كتلك التي ذكرها في الماضين الشاعر الضليل امرؤ القيس ملك طالب بملك أبيه.

ويستمر الشاعر في مناجاته لمحمد الصغير هذا الشهيد الذي فجر براكين الثورة في نفسه يناجيه مطمئناً وساخراً بأن يستسلم لنومه حتى تجن الأمة وهو يقول متحسراً⁽⁸⁰⁾:

الرومُ حولي كلها تتصيدُ...

لكنَّه لا فرقَ بينَ زعامَةٍ عربيةٍ،

تبدو كأنَ خطابها يَتَشَدَّدُ...

وزعامَةٍ أخرى لنا وخطابها يَتَرَدَّدُ،

هُمُ واحدٌ من نسخةٍ تتكررُ...

والعجزُ فوق قرارهم يَتَمَدَّدُ،

البعضُ ألحنُّ من أخيه وأبينُّ

لكن أسوأهم يظل هو الذي

ما قدمت شيئا يداه ويدعي

أية مرارة تنضح بها هذه الأسطر، بل أي إحباط هذا؟ ولكنه الألم والمعاناة الطويلة
 لشاعر هاجت مشاعره بحرارة الغضب، وكأنه استشعر ضياع الأمة العربية، وهو ما زال
 في قمة الانتماء لشعبه الفلسطيني ولأمتة العربية، وبوصفه واحدا من عشاق الأمن
 والأمان، واحدا من عشاق الحرية وأعداء القهر، إنه ينزف نزيفا متقطعا بلا توقف كأنما
 يسود الظلام الكون كله، فيسخر من أمتة التي يريد أن تجن لتصب جام غضبها على
 كل من يدنس أرض الوطن العربي، ويقول إن الروم ما زالوا يتربصون بنا الدوائر
 وينتظرون الفرصة للانقضاض والإجهاز على الفريسة، وهو يقول يائسا محبطا إن
 الزعامات العربية لا فرق بينها، فكلها وجوه لعملة واحدة، فهذا يتشدق بالوطنية، وهذا
 يتفهيق بالبطولة الوهمية، إنها نسخ متكررة لعجز أكيد، إن عجزهم وضعفهم خنق قوة
 القرار، إنهم يتباهون بالفصاحة أحيانا، وبال دعاوى الباطلة أحيانا أخرى، لكن السوء
 عليهم جميعا. فهؤلاء زعامات هزيلة لا تملك السلاح لصد المعتدين ودحرهم عن أرضهم،
 فكل بضاعتهم انحصرت في الكلام؛ بمعنى أن بضاعتهم كلام في كلام، وفيهم يقول⁽⁸¹⁾:

لا خيل يركب في الشدائد ظهرها،

لا مال منه وماله يتبدد...

ويظل في كل المصائب غائبا ولسانه يتطاول...

ومعلم ويظن أن الناس حول مقامه،

من علمه تتزود...

الحبر في وجع السقوط هو الهروب إلى الأمام وأخطر

الحبر بحر للكلام بمركب لا يبحر....

والحبرُ من دميّاً أجلُّ وأكبرُ...

نم يا محمدُ ريثما دنسُ الصحافةِ بعضها من حولنا

قد يستفيقُ من الزناةِ ويظهرُ...

نم يا محمد ريثما أقلامهم تتكسرُ...

ومرة أخرى يبرز لنا الشاعر مشهداً عجيباً في هذا العرض مشهداً يربط فيه بين

الزعامات الهزيلة وبين أبي الطيب المتنبي في قوله⁽⁸²⁾:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيَسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَلُّ

فأبو الطيب يبرر حاله أمام الأمير سيف الدولة في فتوحاته بأنه فقير، وكأن شعبنا

هنا تتمثل فيه روح سيف الدولة الفاتح، وكأن الأمة العربية الهزيلة تتمثل فيها كذب

الشعراء وخيالهم، فهي لا تملك إلا اللسان شأنها في ذلك شأن أولئك الذين يقولون مالا

يفعلون، وفي كل واد يهيمون. فالكلام كله من وجهة نظر الشاعر سلاح مشلول لا يقدم

ولا يؤخر، ولكن فليسعد النطق إن لم يسعد الحال كما يقول المتنبي في بعض شعره،

هكذا الحال يا محمد فلتنم إذن حتى تتكسر تلك الأقلام الكاذبة.

المحور الخامس: النفط لغز صامت ومحير:

يحاول الشاعر جاهداً معرفة حقيقة بيع النفط والنفاذ إلى جوهر قضيته، فيلجأ إلى

شيخ الأزهر ليستفتيه في فك هذا اللغز الذي يكتنفه غموض شديد فيقول⁽⁸³⁾:

يا شيخَ أزهريّاً، وأنتَ إمامنا،

جئنا إليك تدلُّنا،

أنتَ الأمامُ الأكبرُ...

والاحترامُ لشخصكم هو قائمٌ ومقدرٌ،

يا سيدي، يا شيخنا،
أيجوزُ بيعُ النفطِ فوقَ دماءنا؟!
ودماءُ أطفالِ العروبةِ تهدرُ...
والقدسُ دنسُها الدعيُّ ويجهرُ...

يستحضر الشاعر شخصية شيخ الأزهر من عمق الموروث الديني ويدفع بها على سطح الصياغة باستخدام أداة النداء (يا) ذات التأثير القوي، والتي أطلق بعدها علامة الاستفهام والتعجب، فالعلاقة التي تربط الشاعر بشيخ الأزهر هي علاقة عقائدية، تتسم بالأخوة في الإسلام، ومن ثم فإن استدعاء الشاعر لشخصية شيخ الأزهر عبر هذه الأبيات كان موفقاً إلى حد كبير لأنه تم من خلال آلية الدور "وكأنه التكتيك الوحيد المناسب، لاستدعاء مثل هذه الشخصية في سياق القصيدة"⁽⁸⁴⁾ ولما كان النداء في البيت الأول يوحي بتراخي المنادى عن فاعليته، احتاج الأمر إلى هذا التشكيل الصياغي الذي اقتضى وجود الاستفهام والتعجب لتحريك الطاقات الإيجابية، خاصة أنه يريد الإشارة إلى دور شيخ الأزهر العقائدي في الجهر بفتواه في بيع النفط من خلال حوار أجراه معه في دار العروبة لقضايا الفقه مستفسراً وبإلحاح وبإجلال وتضرع عن جواز بيع النفط للعدو ودمائنا تسيل بمحركات الأعداء التي يحركها نفط بلادنا، وعن جواز هدر دماء الأطفال بهذه الأسلحة التي صنعت بأموال النفط عند العرب.. إنه يستفسر مرة بعد مرة عن هذا اللغز المحير حيث القدس تدينس والقهر يتفشى وسلاح النفط أصبح وسيلة لهذا التدنيس، وهذا القهر في يد الغاصبين، ويواصل الشاعر ندائه الموجه لشيخ الأزهر، فيقول⁽⁸⁵⁾:

إنا نجيتكُ شيخنا،
والقهرُ يملأُ أهلنا،
أو ليسَ حقاً دفاعنا والنفطُ نفطُ بلادنا؟!

أن نوقف التصدير حتى يوقفوا،
 فوق الشوارع قتلنا...
 أن يخرجوا من أرضنا...
 أن نستظل بدولة عربية وكغيرنا،
 أو ليس هذا حقنا...؟!
 أذن بهم يا شيخنا
 لا نفط يخرج من جزيرتنا يباع،
 ما دام في أرضي صراع...
 أو ليس هذا كله في شرعنا؟ حق لنا،
 لا سلم في أرض العروبة والحراب على الرقاب،
 لا أمن فيه لغيرنا،
 حتى يعم الأمن كل ربوعنا،
 أو ليس نفط عروبتني ما زال في يدنا سلاح،
 أم أنه أضحي هناك ويستباح كأهلنا،

الخطاب موجه إلى شيخ الأزهر يوجهه الشاعر باسمه، وباسم شعبه، وباسم الشعب
 العربي كله، والعلاقة التي تربط بين طرفي الخطاب هي علاقة الدم الواحد واللغة الواحدة،
 والعقيدة الواحدة، ومن ثم فإن الحديث أو الحوار الذي تحمله الأبيات الشعرية السابقة
 يوضح القهر الذي يعانيه الشاعر وشعبه، فينادي بأعلى صوته وبوتيرة حادة استفهامية
 استنكارية بقوله أو ليس؟؟ التي كررها أربع مرات في مطلع الأسطر الشعرية التي صرخ بها
 إلى شيخ الأزهر طالبا منه أن يشرع له ولشعبه العربي أن يصدوا العدو الصهيوني ويوقفوا

زحفه نحو الوطن العربي الكبير، فكان كل سطر يبدأ بـ: (أو ليس) له دلالتة المعبرة والتي تشير إلى توقد الشاعر وأبناء شعبه إلى تشريع حق الدفاع عن الأوطان، وأنه يريد أن يستصدر فتوى من شيخ الأزهر بوجوب إيقاف تصدير النفط إلى ديار الغرب، فلعل في ذلك إيقافاً لقتلنا، وإخراجنا من أرضنا، ولعل في نهاية الأمر تتحقق دولة عربية ننتفياً بظلالها، إنه حقنا أيها الشيخ الجليل، هكذا يقول الشاعر: اصرخ بأعلى صوتك يا شيخ الأزهر فلعلهم يسمعون، إنه لا يجوز للملك النفط أن يخرجوا نفطهم ليصبح سلعة في يد الأعداء ما دام الصراع قائماً بيننا وبينهم، هكذا الشرع يقول لا سلم في أرض العرب ما دامت الحرب قائمة، كلا، ولا أمن يسود ولا سلام. النفط سلاح في أيدينا نحن، إن علينا أن نستعيد هذا السلاح حتى نقول هذه بضاعتنا ردت إلينا، كما قال أبناء يعقوب لأبيهم في رحلة العودة من لدن أخيهام نبي الله يوسف عليه السلام. ويتحسر الشاعر يائساً وملتاعاً من استباحة النفط العربي كاستباحة أهلنا، وعرضنا، ووطننا.

ويسترسل الشاعر في حديثه عن النفط فقد كرر لفظة "نفط" أو "النفط" خمساً وعشرين مرة لتسيطر على الأبيات التي وردت فيها تماماً، وشحنتها بمد انفعالي وحركة دلالية متوترة كشفت لنا عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، والتي يريد من خلالها مقاومة الاحتلال الكائن على بلاد فلسطين ولبنان من قبل اليهود، فهو بهذا يحدث هزة في أبناء الشعب العربي الواحد، فلعل هذا الشعب يمد يده لنصرة شعبنا الفلسطيني الذي هو جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، ويخلصه من واقعه المأساوي الأليم، فيقول⁽⁸⁶⁾:

سيظلُ نفطُ عروبتِي يتدفقُ...،

أغلى من الدّم الذي مِن فوق أرضك يُهَرَقُ...

أو مِن دماءِ محمدٍ وأهله،

النفطُ خطُّ أحمرٍ...

ومقدسٌ، ومسبحٌ، ومعطرٌ،

كلُّ العروبةِ أهلُها ومتاعُها وجراحُها وترايبُها،

تبقى أمامَ جلاله هي أصغرُ،

إن الذي قد قالَ إنَّ النفطَ يمكنُ أن يكونَ سلاحًا،

هو مغرضٌ أو حاسدٌ أو مرجفٌ...

إن لم يكنْ هو أحقُّ...

يبدو أن الشاعر يائس من قضية النفط ويرى أن النفط العربي سيبقى يتدفق عبر أنابيب الغرب، ويتساءل حائراً أهو أغلى من الدم العربي ومن دم محمد السدرة وأهله؟، ثم يصرخ الشاعر بأعلى صوته بأن النفط خطُّ أحمر يا قوم وهو مقدس ومسبح ومعطر كأية قضية مقدسة في دار العرب. ويستمر الشاعر في يأسه وقنوطه بطريقة ساخرة هازئة من أمراء النفط مومناً إلى الحقيقة المرة من أن العرب بأوطانها وتاريخها وجراحها صغيرة صغيرة أمام جلال النفط وعظمته، وعليه فليسكت المبطلون الكاذبون الذين يدعون أن النفط يمكن أن يكون سلاحاً في أيدي العرب؛ إنهم مغرضون ولربما وصلوا إلى درجة حماقة لأنهم لم يعرفوا حقيقة الأمر؛ ذلك أن النفط نهر يتدفق لا يتوقف كما في قوله⁽⁸⁷⁾:

النفطُ لا يتوقفُ...

والنفطُ لا يتدخلُ،

النفطُ صارَ محايداً بين العروبةِ كُلِّها ودمائها،

حتى ولو سالتْ دماءُ أكثرٍ...

نم يا محمد ريثما يُفْتَي لَنَا،

لا تبتئس من يومنا،

النفط أرخص من دماك وأيسر،

الله من نفط الجزيرة وحده هو أكبر...

في الوقت الذي يركز فيه الشاعر على عدم توقف تدفق النفط العربي؛ فإنه يؤكد على أنه سلاح لا يتدخل حتى لو سألت أنهار عربية من دماء الأبرياء لتشكل كما أكبر من آبار نفطهم، ففي نظر ملوك النفط كل دماء الدنيا لا تساوي شيئاً أمام خزائن نفطهم، ثم يناجي محمداً أخيراً طالباً منه الاستسلام لنوم عميق حتى تصل فتوى شيخ الأزهر الجليل وما هي بواصلة، ولكن الشاعر ينهض فجأة من جديد وكأن حرارة الأمل تدفعه ليطفو فوق أمواج يأسه وقنوطه ليصرخ بأعلى صوته بأن النفط أرخص من دمك يا محمد، ثم تزداد وتيرة الانفعال لديه بأن الله أكبر من نفطهم وعروشهم.

وبقلب مغمم باللوعة والأسى يتحسر الشاعر على ضياع القدس قائلاً⁽⁸⁸⁾:

القدس ضاعت يا محمد مرتين ولم تزل تَمَزَقُ،

والنفط لغز صامت ومحير...

لا شيء فينا قد يمس قداسه أو يقدر،

ها أنت قد لونت نفط بلادنا،

النفط في شبه الجزيرة أحمر...

أدميته خجلاً،

أترأه حقاً يخجل...

النفط أميركا ونحن سعاتها،

وهي التي من سوقنا تتسوق...

النفط يبدو ساكناً،

مع أنه زلزالٌ عصفٍ قد يطالُ رقابهم أو يحرقُ،

النفط أقوى من حديد جيوشنا...

هكذا تبدأ المعزوفة الحزينة مشحونة بالألم والحسرة لضياع القدس معبراً بلوعة عن
الأزمة الكبرى التي وقع فيها أبناء الشعب وقدس المسلمين كافة، فلا يملك الشاعر أمام
هذا الضياع إلا أن ينفذ يديه يائساً من الأمر كله كأنه يسخر حتى من الشعر، فالنفط
لغز صامت ومحير مما يجعل الشاعر يتحسر بعبرات حزينة من أن القدس ضاعت مرتين
وما زالت تضيع وتضيع والنفط صامت هناك لا يحرك ساكناً فأى صمت هذا؟! وإلى
أين؟ لا أين يذهب!!!

إن الشاعر يفجر شحنات الرفض لهذا الصمت المحير لقوة النفط، فيرى في صمت النفط
شيئاً قدسياً - بطريقة ساخرة - لا يمس، ويتوجه مرة ومرة معزياً الطفل ومطمئناً له ومكبراً في
الوقت نفسه روحه الطاهرة، إن دمه النقي الأحمر قد صبغ النفط صبغة حمراء، والنفط عاد
أحمر يا محمد، وتظهر براعة الشاعر هنا في رسم صورة مؤثرة مجسمة للنفط مشبهاً إياه في
لونه الأحمر الجديد بإنسان حيي احمرت وجناته خجلاً أمام موقف معين، ولكنه يستفسر
ساخراً أو حقاً أن النفط يخجل؟ لا، لا نظن!، فالنفط أمريكي ونحن سعاة أمريكا نسوق لها
بضاعته. إن النفط قد بدا ساكناً سكون بحيرة آسنة ربما لا وجود للكائنات الحية
فيها، فكيف يحدث ذلك من وجهة نظر الشاعر مع أن الأولى له أن يشكل زلزالاً نارياً يحرق
رقابهم - أي رقاب الأمريكان - فهو أقوى من حديد جيوشنا.

ورغم التوتر والانفعال الذي يعيشه الشاعر وهو يصرخ بأعلى صوته محاوراً الشهيد
ومؤكداً ضياع القدس وعدم قناعاته بدور النفط العربي في حماية البلدان العربية يعود

ويداعبه الأمل، فيقول للشهيد محمد⁽⁸⁹⁾:

النفطُ قد يتفجرُ،

أرجوكَ اخفضُ صوتكَ العاليَ هنا،

ممنوعةٌ فينا القصاصُ تصرخُ...

ممنوعةٌ تتساءلُ

ممنوعةٌ تتذكرُ...

ممنوعةٌ تتطاوُلُ، الرومُ حولكَ كلها تتسمعُ

الرومُ حولكَ كلها في شأنِهِ تتداولُ

نم يا صبيُّ فإنها هي موجةٌ تعلو وتعلو إنما

في بحرنا تتكسرُ...

ومن ثم فإن النفط - عند شلايل - في سياقاته المختلفة لا يقوم بدوره الإيجابي نحو بناء الوطن العربي، وإنما يأتي دائماً محايداً أو سلاحاً لغير العرب، ويستخدم ضدهم، وكأنه لا يدل على البهجة والسرور، وإنما يحمل معاني البؤس والشقاء، لكن الشاعر هنا يداعبه الأمل وربما بسخرية أيضاً يهمس في أذن الفقيه محمد الدرة متيقناً أنه سيسمع هذا الهمس، فيقول: إن النفط قد يتفجر أيها الطفل الشهيد في يوم من الأيام، ولكن إياك أن ترفع صوتاً، بل لئذ بالصمت أو تكلم هامساً، فقد حاولوا خنق أصواتنا وتكبييل قصادنا الحماسية، فلا تساؤل، ولا تذمر، ولا تجاوز للحدود التي رسموها لفكرنا وإرادتنا، إنهم يتسمعون حولنا، ويصنعون مخططاتهم، ويتبادلون مداولاتهم في كيفية الهيمنة الدائمة على سلاح النفط، ولكن الأمل مرة أخرى يحرك شجن الشاعر بأن هذه أمور عارضة وموجات تعلو ثم تهبط ثم تتكسر على شواطئ أمتنا الصخرية. هكذا يتفاءل الشاعر محاولاً أن يجد حلاً لهذا اللغز المحير.

ويستمر شاعرنا يفتح رشاشات غضبه على كل من حوله، فيقول⁽⁹⁰⁾:

عبرية كانت رصاصات الجنود بحقدِها.

وطلال من عدساته موتاً يرى فيصور،

قتل الجنود محمداً،

وأمام عينيه التي كانت ترى وجه الجنود وتنظر،

لم يستتر جند الغزاة بزيهم وبفعلهم،

وعلى الهواء توزع الدنيا الجريمة تنشر...

إعدامك العلني والهمجي فاق حدوده،

أوجعتنا وجعاً يطال الأرض من جنباتها،

ويهزها هزاً، ويلعن سلمها،

ويطال أمريكا ويلعن اسمها أبداً،

ومجلس أمنها،

ويلعن من في الأرض يخطب ودّها،

وشريكة للاحتلال بكل شيء قد يشاء تمده

تحمي جرائمه هنا وتبرز...

ويطال هيئات الأمم، قطعائها

وأمينها العام الذي لا يحترم

ويطالنا...

ويطال جامعة العرب

ويطال كل عروشنا وجيوشنا وأكادس الرتب،

ببساطةٍ وسهولةٍ هانحنُ نعلنُ أننا لا نستحي،

لا نستحقُّ بأن نلقَّبَ بالعرب...!

تلك هي صورة البشاعة التي ارتكبها الجنود الصهاينة برصاصهم الغادر الذي صوب تجاه الطفل البريء الذي لم يذق منذ أن ولد للحياة طعماً، ويركز الشاعر هنا على المغامرة التي قام بها أحد مصوري التلفاز والصحف ومراسليها وهو طلال⁽⁹¹⁾ ذلك الذي غامر بحياته ليلتقط مشهد الجريمة وهو الذي صرخ بأعلى صوته قُتل الطفل محمد، قُتل الطفل محمد، ولكن دون جدوى، ويصور الشاعر خسة القتل اليهود وبجاحتهم بزيهم العسكري، فهم لا يتورعون عن الإقدام على الجريمة، ولم ينزوا من أمام آلة التصوير التي وزعت الجريمة مباشرة، وهو يرى أنهم بفعلهم هذا يمارسون أسلوباً همجياً أين منه شريعة الغاب؟ في زمن عربدت فيه الذئاب.

فجريمة مقتل الطفل من وجهة نظر الشاعر تنسحب على الأرض كلها، ولم يبرئ أحداً وعلى رأس المجرمين أمريكا الملعونة إلى أبد الآبدين - كما يقول - كما أن غضبته تمس مجلس الأمن، ويلعن من يخطب ود مجلس الأمن، وكلهم شركاء في هذا العمل الدنيء، كما أنه يصب جام غضبه على هيئة الأمم وأمينها الذي تجرد من عناصر الاحترام، فالجريمة لم يبرأ منها أحد، حتى أنها تمس الشاعر نفسه، والعرب جميعاً بجامعتهم الموسومة بجامعة الدول العربية، كما تمس العروش العربية بوجه خاص بجيوشها ورتبها، فهي أمة وقحة لا تستحي ولا تستحق اسم العرب، وهي مجردة من الغيرة والحمية، واستبدل ذلك كله بخور العزيمة واستمرار الهوان، فليس لجرح بميت إيلام، فيقول⁽⁹²⁾:

ليست لنا مِن غيرةٍ أو حميةٍ ويموت داخلنا الغضب،

بل ماتَ ما هو أخطرُ...

ونخافُ أمريكا كرب العالمين وأكثرُ،
هانحن خالقنا نكادُ به نشكُ ونكفرُ،
ونمد أيدينا لأمريكا هنا نتوسلُ،
فلعلها في أمرنا تجد الحلول لحالنا تتدبرُ...
ولقد توكلنا عليها دائماً،
وكأنها ربُّ يشاءُ ويقدرُ...،
ربُّ يعاقبُ إن أرادَ ويغفرُ...،
إني أعودُ بربنا من ضعفنا...
وأعودُ من شيطان أمريكا لنا نُسْتَنْصِرُ...
وأعودُ بالعرب الذين لربهم،
حملوا الرسالة منذرين يُبشروا
أن يشركوا و برب أمريكا الذي سيهدُّها -
هداً لها ويُدْمِرُ...
ولقد علَّتْ وهو الوحيدُ القادرُ...

ويسجل الشاعر بشاعة السياسة التي انتهجها العرب تجاه أمريكا، فينفجر
غاضباً هائلاً من أمة العرب التي تعتبر أمريكا رباً بل أكثر من رب العالمين والعباد بالله.
ويعرج الشاعر قليلاً على من العقيدة الإسلامية في داخلنا حيث إنه يتهم هذه الأمة
بالكفر والإلحاد والشك في مالك السماوات والأرض حيث إن هذه الأمة تتضرع لأمريكا
بدلاً من التضرع إلى الله سبحانه وتعالى، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ألا ساء ما
يفعلون!!!

وإن هذه الأمة بدلاً من أن تحسن التوكل على الله رب العالمين أحسنت توكلها على أمريكا، أهى رب يعبد؟ أهى رب يعاقب ويغفر الذنوب جميعاً؟! تعالى الله عما يصفون.

والشاعر يتعوذ في نهاية الأمر بالله لا من الشيطان الرجيم ولكنه يتعوذ من ضعف عباد الرحمن، وهو يستبعد أن الشيطان الأمريكى يستطيع في يوم من الأيام أن يحرز لهؤلاء نصراً، ويتعوذ من العرب أن ينسوا رسالتهم الحقيقية التي بشروا بها في يوم من الأيام، ولم يشركوا بربهم فسادوا وارتفعت راياتهم في كل مكان راية الواحد القادر. ويستمر الشاعر في ثورته الغاضبة وانفعالاته الشديدة تجاه أمته العربية، فيقول⁽⁹³⁾:

ويطالُ جوهرنا وأزهرنا وتجارَ الغنم،

ويطالُ كُتَّابَ الصحافة والنخافة والورم...

أو كلُّ أصحابِ القلم...

كلُّ الذين يروجونَ لغيرنا، أقلامُهم تتكسرُ،

ويطالُ كلُّ فصائلٍ قد تدعى حملَ القيم...

أو تمتطي جرحى وتركب في مراكب غيرنا أو تبجرُ،

ويطالُ كلُّ المسلمين وفوقَ كلِّ مساحةٍ حملتَ علمُ،

ويطالُ كلُّ نسائنا في كلِّ رحمٍ لم يلد كمحمدٍ،

أو كان فيه يبشر...

ومحمد يا أمّة،

فوقَ العروشِ النائحاتِ وأكبر...

ويستمر الشاعر في صب غضبه وثورته النفسية كوابل المطر على جوهر هذه الأمة وأزهرها، وكتاب الصحافة، وأصحاب القلم، وكل هذه الأدوات التي سخرت

لخدمة الغرب راجياً أن تتحطم أرقامهم، ولا يتوقف لحظة عن النيل من كل الفصائل تلك التي تدعي أنها صاحبة قيم، ولكنها تدوس على جراحنا وتبحر في مراكب غيرنا، وهكذا، وهكذا تمتد رقعة غضبه لتمس المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها حتى النساء والأجنة التي في أرحامهن إن لم يلدن كمحمد. ولا نامت أعين الجبناء!!!

المحور السادس: القدس غالية:

وبعد أن يتوجه الشاعر إلى تعزية أم الشهيد محمد الدرة مشعراً إياها بأن وليدها الشهيد فوق كل العروش، وأكبر من كل السلاطين يجري حواراً بينه وبينها تلك المرأة التي تبدو كجبل شامخ لتشعره أن ابنها قطعة من قلبها غالية عزيزة عليها لكن القدس أغلى الغاليات، فالشاعر يأتي في آخر مطولته ليقول مع أم الشهيد للعالم أجمع أن القدس أغلى من كل شيء⁽⁹⁴⁾:

وتقول أم محمد وكأنها جبلٌ لنا يتكلمُ

ومحمدٌ هو قطعةٌ من قلبها

غال عليها مثلما هي روحها

ويهونُ فقد محمدٍ

والقدسُ غاليةٌ علينا أعظمُ...

ويصور الشاعر أم الشهيد متوجهة إلى المسجد الأقصى تناجيه وتكفكف دموعه معزية بأن الخير كامن في هذه الأمة، فإذا غاب عن العرب جواب، فالجواب يطلقه الصغار من أمثال محمد الدرة، فيقول⁽⁹⁵⁾:

وتقول أم محمد: لا تحزني يا قدسنا،

إن غابَ من عربٍ جوابٌ...

هذا صغيري تفتديكِ دماؤه،

هذا دمي يكفيك إن عزَّ الخطاب...،
 هيا خُذِيهِ وطهري ساحاتنا،
 قد دنسَتْهُ برجسها زُمرُ الصهاينة الكلاب،
 من أجل عينك قدسنا،
 يحلو لنا في ساحة الأقصى الأسير براقه،
 موت على عتباته في كل باب...،
 أمّ كأمّ محمد فينا يساوي صبرها جيشاً،
 وعرشاً للعروبة كلها تتظلل...،
 أمّ كأمّ محمد وبعزة فيها الشموخ يجاهر،
 ما أعظم الأم التي قد أنجبت أبطالنا،
 إن التي قد أنجبتك لأرضنا،
 في عزّة بعطائها تتواصل...

واضح أن الشاعر يرى أن دم محمد هو دم الأقصى. وهو أقوى خطاب وجهته أم الشهيد للقدس إذ تقول لها: خذي دم ولدي وطهري به محرابك وساحاتك، والرقعة العربية بعد أن دنستها جماعات الصهاينة الخسيسة، فالموت يهون كما تقول أم محمد في سبيل الأقصى الأسير إنه موت مشرف، ويرفع الشاعر من شأن أم محمد ويعليها علواً كبيراً وهي تزن بصبرها جيشاً كبيراً كما تزن بعروش العروبة كلها، وإن هذه المرأة من وجهة نظر الشاعر بشموخها وعزة نفسها تعتبر قدوة للأمهات جميعاً، فطوبى لها تلك المرأة المنجبة. وتتجلى عبقرية الشاعر لتبلغ أقصى مداها حين وصل إلى نهاية المطاف طالباً من الأم أن تنظر إلى عظمة وليدها الشهيد محمد، فيقول⁽⁹⁶⁾:

هيا انظري، هذا الصبي كأنه الخطابُ يبرزُ للعدا،

أو أنه الجراحُ جاء يقودنا من فوق حباتِ الندى،

من بين طيات السحاب...،

أو ربما هو خالدٌ في وجهِ رومٍ تستبيحُ دماءنا،

فوق التراب...،

أو أنه هذا صلاحُ الدين في قلبِ الفرنجة والحراب،

هذا عليٌّ أو أسامةٌ أو بلالٌ،

أو هذه أسماءٌ في عز السؤال،

هم صبيةٌ، لكنهم هم وحدهم صاروا الرجال،

ومحمدٌ عرى الجراح أعاد السيل في دمنا،

ومحمدٌ عنواننا،

ومحمدٌ بابٌ ونافذةٌ لنا،

هزَّ السلامَ فأسقطَ الراعي له،

كتبَ البدايةَ عندما بدأ الختامُ

ومحمدٌ وجعٌ وأغنيةٌ تدور،

ومحمدٌ جيشٌ من الأعلام في وجهِ الغزاة هنا يثور،

أيقظتنا، كنا سنحلمُ بالسلامِ يعمُّنا،

لكنَّ موتك للحقيقة رَدُّنا...،

كنا ندور...،

واضح أن الشاعر يجعل هذا الصبي الصغير رمزاً جامعاً لكل بطولات الإسلام،

ويعود إلى توظيف بعض الشخصيات التراثية الإسلامية من خلال الصورة التشبيهية التي أقامها على مساحة مجموعة من الأسطر الشعرية السابقة، ولم تأت على نمط واحد بل جاءت متنوعة متعددة، وربما يكون لهذه الصورة التشبيهية دور في تخليد هذه المطولة مثلما قال ابن قتيبة: "وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى لكنه قد يختار على جهات وأسباب منها الإصابة في التشبيه"⁽⁹⁷⁾ فقد استعار الشاعر دور بعض القادة المسلمين الذين اشتهروا بالبطولات وأسند إلى الصبي الشهيد محمد الدرة محاولاً إقناع القارئ بأن الشهيد محمد يلعب دوراً في انتفاضة الأقصى المباركة لا يقل أهمية عن دور الفاتحين الإسلاميين، مرة هو الفاروق في صولته وجولته، ومرة أخرى أبو عبيدة الجراح أمين الأمة وأحد أبرز قادة الشام، ومرة ثالثة خالد سيف الله المسلول بطل اليرموك وبلاد الشام الذي لقن الروم درساً ما نسوه أبداً، وهو صلاح الدين في العصور الوسطى الذي علم الغرب مبادئ الشرف والفروسية، وهو علي أمير المؤمنين صاحب ذي الفقار، ولالإمام علي كرم الله وجهه حكاية مع يهود بني قريظة وبني النضير حيث فعل سيفه فيهم الأفاعيل، ومحمد هو أسامة بن زيد أو بلال بن رباح بما تحمله هذه الأعلام من معاني الروح والسمو والنضال، فهؤلاء القادة كان فيهم من هو صغير السن، ولكنهم فعلوا فعال الرجال، فأسامة بن زيد كان صغيراً حين أسندت له القيادة وغيره الكثير، واليوم ينبعث من رحم الزمان محمد الدرة ذلك الذي نكأ الجراح، وكان مرآة للأمة انعكست عليها أصول العجز العربي والانكفاء الإسلامي. يا لعظمة هذا الطفل! لقد فتح الباب على مصراعيه باب الحقيقة، ولكنه فتح نافذة الأمل حين هز العالم وأظهر زيف السلام، هذه الأسطوانة المشروخة التي تردد أغنية عادت ممجوجة بما فيها من نشاز، لقد أسقط السلام وراعي السلام، ولقد كتب الشهيد محمد الدرة البداية الحقة بعد أن أسدل الستار على مخازي الماضي العربي والإسلامي في عصره الحديث بالذات. إن هذا

الطفل الشهيد ألم وأمل وأغنية حلوة تهز الوجدان، وهو جيش إعلامي مؤثر في وجه المعتدين أيقظ غفاة البشر من سباتهم، وأبان أمامهم الوهن الذي كانوا يدورون في دوائره حين حلموا بالسلام لكن موت هذا الطفل ألمات السلام المدعى.

فاستدعاء الشاعر لشخصيات الفاتحين الإسلاميين وجعل الشهيد محمد الدرة يتقمص هذه الشخصيات إنما يمثل آلية من آليات استدعاءات الشخصية التراثية في توظيف الشاعر لقول يتصل بالشخصية (سواء أكان صادراً عنها أم موجهاً إليها)، ويصلح للدلالة عليها في آن، بحيث تصبح وظيفة هذا القول وظيفية مزدوجة التفاعل الحر مع شفرات النص، واستحضار صورة الشخصية في ذهن المتلقي⁽⁹⁸⁾، ولكن الشاعر حاول أن يستحضر هذه الشخصية من خلال صورة تشبيهية جعل طرفها الأول ثابتاً والطرف الثاني متحولاً متغيراً، ليضيف دلالات جديدة تتفاعل مع بنية النص، "لأنه عند استخدام آلية الدور تتحول الأدوار أو الأفعال الدالة إلى دوال، وتتحول الشخصيات المستدعاة إلى مدلولات في المستوى الأول من الإدراك"⁽⁹⁹⁾ وإذا كان التشبيه كما يرى النقاد العرب يزيد المعنى وضوحاً ليكسبه تأكيداً⁽¹⁰⁰⁾ فلا يعني هذا أن الغرض من التشبيه هو رسم الأشكال والألوان وإيجاد وجوه الشبه بين الأشياء؛ لأن التشبيه لا يراد لذاته أو لإبراز بعض الصفات المشتركة بين الطرفين، وإنما يطلب لعلاقة الشيء الموصوف بالنفس البشرية "فالصورة التشبيهية الجيدة هي التي تتعدى حدود المقارنة بين شيء وشيء، وتتجاوز وجوه الشبه التي فتن بها البلاغيون، بل تتعدى حدود الاتكاء على استخلاص وجوه مشابهة، وتعتمد على الاتصال العاطفي وتدفق الألوان التي تسفح ظلالاً إيجابية حيث تمتاح قيمتها من تموجات الشعور"⁽¹⁰¹⁾.

وقد كان تفاعل الصور التشبيهية مع سياقها أحد الملامح البارزة لتشبيهات الشاعر، ويضاف إليها ملامح أخرى هي شيوع الأحداث والبطولات التاريخية وتنوعها بتنوع شخصيات الفاتحين والأبطال الذين استحضرم الشاعر لصورة من عمق التاريخ

الإسلامي وقد حافظ الشاعر على تلك الصور ونماها وجعلها صوراً جديدة، " ولكن الأمر لا يقف عند حذف أحد الأركان أو إبقائه، وإنما تتوقف بلاغة التشبيه على إفادته الغرض المقصود منه مادامت فائدته الإيضاح والبيان مع الإيجاز سواء ذكرت الأركان جميعاً أم لم تذكر" (102).

وإن الشاعر ليستمر في بث آلامه، متجرعاً كنوس أحزانه حين يقدم فصل الختام في جريمة العصر بآثارها البعيدة الغائرة في أعماق الضمير البشري، فيقول (103):

يُروى لنا، أيامَ كان غزائُنَا بجنودهم،

في أرضنا...

ومحمدٌ طفلٌ صغيرٌ يومها،

وأبوهٌ يصحبُه إلى سوقِ المدينةِ يشتري...

قتلوه رمياً بالرصاص...

ومعلمُ التاريخِ في فصلِ الولدِ،

يحكي الحكاية للبلد...

يحكي الحكاية كلها والكل يسمع قصتك،

وتظلُّ في كتبِ المدارسِ سيرتُك

أيامَ كانَ المعتدون كظِلِّنا...

يحكونَ قصتكم مع الحجرِ العتيذِ

يحكونَ قصةَ موتكم عندَ المعابرِ والحدود...

قصفُ الحجارةِ كالطر...

والجندُ يرعبها الحجر،

والأم تجمع في الحجارة للرماة تزغردُ،
والناس تخرج للشهيد حفاوة وتعاهدُ...،
الله يرحم روحهم شهدائنا،

فالشاعر يخطف المشهد الأخير للرواية بحركة دراماتيكية رائعة، حيث يجعل التاريخ الآتي يتذكر فصول الرواية، وكيف أن الصغير اصطحب أباه لسوق المدينة، لتصرعه في الطريق رصاصات غادرة، وينعاه الناعون، ويبكيه المعلمون، ويدخل الطفل دائرة المناهج والدراسة، ويدخل بطن الزمن، إنه يسجل سيرة بطولة قائمة برأسها، اسمها بطولة الحجارة، وأي حجارة تلك التي تهز كيان الغزاة المعتدين، إنه مشهد فظيع كان الشاعر يقرؤه من ذاكرة التاريخ، ولكنه تاريخ مشرق تغلفه أكاليل النصر حيث اندحار الأعداء، وفرحة الأمة، وإقامة الميادين التي ستخلد الأبطال الميامين، كما في قول الشاعر⁽¹⁰⁴⁾:

سنقيمُ ميدانَ الحجارة عندنا
ونلُمُ في الميدانِ كل حجارةٍ
قُدِّفَتْ على صهيونَ قبل رحيله
ويكونُ ميدانُ الحجارة شاهقاً،
من فوقهِ صورُ الرماةِ بكفِّها تتألقُ...
في كل ذكرى للفداء يُذكرُ...
الآنَ توقظك المرايا كلها
فالصبحُ جاءَ بنوره يتسابقُ...
فوق المآذن ينشدُ...

منا لأُم محمدٍ ومحمدٍ أذكى التحيةَ أعطرُ،

منا السلام عليكما...،

قبل المماتِ وبعده يتجددُ...

ويعود الشاعر في نهاية مطولته إلى توظيف الحجارة مرة أخرى تخالف المرة الأولى باعتبار أن الشعب الفلسطيني سينتصر في النهاية، وينتهي دور الحجر في القتال ويتحول إلى ميادين تخليداً لدوره، فهنا ميادين الحجارة التي ستجمع فيها كل الحجارة التي قذفت بها جنود المحتل الصهيوني في يوم من الأيام، وعليها تعلق صور الشهداء، أولئك الرماة الصناديد. كم هو جميل ورائع هذا الحلم الذي رسمه الشاعر من خلال وجدانه الحالم، إن جحافل النصر وجنود الأنوار الساطعة ستوقظك أيها النائم في رقدتك الأبدية، ولن أقول لك نم يا محمد بل إنك ستصحو على صوت النفير وأهازيج الظفر في كل مئذنة وبيعة.

ثم يختم الشاعر رحلته بتوجيه تحية أخيرة للبطل الشهيد مستحضراً سيرة يحيى عليه السلام حين حياه رب الأرباب ومنزل الكتاب بقوله تعالى: «وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»⁽¹⁰⁵⁾.

الخلاصة

بعد أن طفنا طويلاً في مطولة محمد الدرة الفلسطيني للشاعر عمر شلايل، واقتفيينا آثارها، وتتبعنا محاورها المبنية على المنهج التحليلي، وبعد أن جسنا خلال هذه المطولة التي سخرها صاحبها لخدمة انتفاضة الأقصى من ناحية، وخدمة الأمة العربية من ناحية أخرى، حيث إن الدراسة هي محاولة لاقتحام عصر الحجر الذي يواجه دبابة مدججة بأعتى الوسائل القتالية في عصرنا الحاضر، فلا بد إذن من أن نقف قليلاً لنرى ما جنيناه من ظواهر ونتائج من دراسة هذا العمل الإبداعي، ونتعرف على غاياته،

ونتلمس مرامييه ، فنحن نعلم أن قيمة العمل تكمن في مدى تحقيق هذه الغايات وهاتيك المرامي ، ولعل الدراسة تكون قد حققت الغاية التي انطلقت منها ، وهي دراسة مطولة محمد الدرة الفلسطيني دراسة تحليلية تتبعت المحاور الدلالية عند هذا الشاعر ، والتي توزعت على ستة محاور استخدمها الشاعر بمثابة دوال على معانٍ جزئية تكتسب دلالتها ومعانيها من خلال علاقاتها التكاملية من جانب والتركيبية من جانب آخر ليشكل هذان الوجهان وجهاً واحداً وضاح الجبين إذ تولدت هذه المحاور من تفاعل الشاعر مع البيئة المحيطة به فراح يصورها لنا بكل جزئياتها على النحو التالي :

ففي المحور الأول : (وهج الهزيمة) كشفت الدراسة عن واقعنا العربي ومدى خطورة التواجد اليهودي الصهيوني في فلسطين ، فهم لا يكتفون بهذا بل يتطلعون إلى ضم بقية أجزاء الوطن العربي تحقيقاً لحلمهم الكبير في دولة إسرائيل العظمى من النيل إلى الفرات كما يدعون ، وقد تعالت صرخة الشاعر التي وجهها للطفل الشهيد محمد الدرة لعله يحرك بنبراته الملتهبة الضمير العربي من جموده ، ويوقظه من سباته ، وهذه القضية قد أرقّت الشاعر كثيراً فبات يبحث عن حل لها .

وفي المحور الثاني : (الحقيقة والقناع) ركزت الدراسة على إظهار الحقيقة التي يحاول بعضهم أن يخفيها ظناً منهم أنها غير معروفة ، وقد اتخذ الشاعر من الطفل الشهيد محمد الدرة رمزاً للظلم عبر من خلاله عن انتفاضة شهداء الأقصى التي يجد من خلالها طريقاً لخلاص الشعب الفلسطيني من الاحتلال الصهيوني الغاشم بوحدة الصف العربي ، وقد ربط الشاعر بين هذا المحور والمحور السابق ربطاً عضوياً كاملاً كما ربطه مع بقية المحاور الأخرى .

وقد كشفت الدراسة في المحور الثالث (سقوط الأقنعة) عن الزيف جلياً واضحاً ، إذ أحرقت شمس الحق كل ما يزعمون ، كما ركز الشاعر في هذا المحور على أتباع

أمريكا ذلك الشبح الذي أصبح بعضهم يلهثون جرياً خلفها ولكنه إلى وهم وسراب، يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهكذا لتضيع البلاد والعباد، ولكنه في خضم هذه الرؤية يحدوه الأمل؛ لأن إيمانه بالله كبير، ولكنه لا ينسى أن يسجل بنفس ملتاعة غاضبة مخازي الأمريكان ومن لف لفهم وحطب في حبلهم ترضية لإسرائيل غاصبة الأرض والعرض؛ عله يحرك بذلك ضمائر عربية "متمسحة"، وهو لا ينسى أن يجار بأعلى صوته داعياً إلى التحرك العربي والتوحد العربي كطريق للخلاص من هذا الوباء الذي أصاب جسم الوطن العربي محاولاً أن يفتك بدوله واحدة تلو أخرى بوسائله وأساليبه الماكرة، وهذا ما لمسناه في لبنان، وفي فلسطين، وفي العراق والحبل على الجرار، والليالي حبالى يلدن كل عجيبة، والشاعر يستغرب بدهشة وحسرة من هذا الصمت العربي الطويل والعجز الكامل عن تلمس سبل النجاة.

وفي المحور الرابع (السراب) بينت الدراسة أن الشاعر قد شقي بحثاً عن مضمّد لجراح شعبه الغائرة التي طالما فتشت العرب عنها في قممهم تلك التي لم تغن قتيلاً بل إنها زادت نار الخلافات سعيراً فيا ألطاف الله!!! وقد بدت النسبة المأساوية مسيطرة تماماً على الشاعر في هذا المحور فراح يشكو همومه وهموم شعبه بل هموم أمته العربية للشهيد الطفل محمد الدرة التي تجرعت كأس المر منذ خمسين عاماً تهجيراً وترحياً وحصاراً وتضييقاً محاولاً أن يوضح لنا أن الأساليب التي استخدمت ضد العدو الصهيوني على مر السنين السابقة لن تجدي نفعاً، فمحمد الدرة وأمثاله من الأبطال الشجعان هم الذين سيحطمون سيوف الأعداء على صخرة إرادتهم وعزيمتهم القوية، ويصرخ الشاعر بأعلى صوته لتهب الجموع العربية في حركة غاضبة في وجه الأمريكان ومن لف حولهم لدحر الاحتلال عن الأراضي العربية.

وفي المحور الخامس (النفط لغز صامت) عرفت الدراسة طبيعة النفط وبيعه من

خلال فتوى شيخ الأزهر الذي لجأ إليه الشاعر ليستفتيه في فك هذا اللغز المحير الذي يكتنفه غموض شديد، حاثاً إياه أن يصرخ بأعلى صوته لعل ملوك النفط يسمعون أنه لا يجوز لهم أن يخرجوا نفطهم سلعة في يد الأعداء - ما دام الصراع قائماً بيننا وبين اليهود - يحاربوننا به فلا بد أن يعود النفط لأيدي العرب سلاحاً في أيديهم لا في أيدي أعدائهم، وكشف هذا المحور عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، والتي يريد من خلالها مقاومة الاحتلال الكائن عن بلاده فلسطين، ولبنان من قبل اليهود، وهو بهذا يحدث هزة في أبناء الشعب العربي الواحد لعلهم يمدون يد النصر لشعبه الفلسطيني الذي هو جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ويخلصه من واقعه المأساوي الأليم.

وفي المحور السادس والأخير (القدس غالية) ركزت الدراسة على القدس ومكانتها العزيزة على نفوس المسلمين ويصور لنا أم الشهيد وهي تتوجه إلى الأقصى لتناجيه وتكفكف دموعه معزية بأن الخير كامن في هذه الأمة، ويحاول الشاعر أن يعزي أم الشهيد فيجعل وليدها رمزاً جامعاً لكل بطولات الإسلام فقد أسند إليه دون بعض القادة المسلمين محاولاً إقناع المتلقي بأن الشهيد محمد الدرة يلعب دوراً في انتفاضة الأقصى لا يقل أهمية عن دور الفاتحين المسلمين. ويختتم المحور بتوجيه تحية إكبار وإجلال للشهيد البطل الطفل محمد الدرة.

وبعد فهذه هي المحاور التي تمحورت المطولة حولها وقد رأينا كيف تعانقت هذه المحاور مع مراحل حياة الشعب العربي بشكل عام والشعب الفلسطيني بشكل خاص، إضافة إلى تعانق هذه المحاور فيما بينها وامتزجت إلى الحد الذي كان يتعذر معه في بعض الأحيان الفصل بين هذه المحاور، وهذا دليل على صدق رؤية الشاعر ووحدها وتكامل أبعادها والذي ساعد على ذلك أن الشاعر كان يتحدث عن قصة شعبه الفلسطيني بصدق وعن قضية أمته العربية في نفس الوقت بسليبياتها وإيجابياتها كاشفاً

الأقنعة التي طالما تستر البعض فيها. وقد ظلت اللغة الساحرة سمة أساسية في أسلوب الشاعر الذي يهدد بذكائه كل المستقرات، ويفلح في إغلاق المنطق الراكد للحياة من حوله، إذ إن الشاعر لا يرى في مطولته التي أسماها محمد الدرة الفلسطينية واستشهاده سوى أنه طفل بريء قتل برصاص الغدر الصهيوني أمام العالم أجمع، هذا الحدث الجلل تحول إلى مطولة تسخر مما حولها من الأوضاع العربية رافضاً لسياسات الدول العربية، وبالوقوف على هذه السخرية أحسنا ببعد اجتماعي عميق لهذه السخرية التي تتعلق بالأمريكان ومن سار في ركابهم إن هؤلاء جميعاً قد نزعوا كل الصفات العربية الأصيلة من أبناء الأمة العربية، فضاعت النخوة والشهامة والنجدة وإغاثة الملهوف التي عرف بها العرب منذ الغابرين.

إن لعبة السخرية التي لعبها الشاعر باقتدار كانت لازعة لمن سخر منهم، فهو يمتلك من الوعي السياسي للمنطقة ولل قضية الفلسطينية ما لا يمتلكه الكثيرون ممن حوله من بني جلدته، فقد كان يحسن الموضع الذي تأتي فيه الكلمة على حد ذاتها؛ لتكون باعثة على السخرية الشديدة التي كان يتعمدها الشاعر، والتي تمتلئ بالرفض الشديد لما هو كائن في بلدان الوطن العربي، فهو يسخر من أمريكا ومن الذين تهاكوا على موائدها، كما سخر ممن سخروا نفطهم لخدمة الأمريكان واليهود بطرق مباشرة أو غير مباشرة، يسخر من الذين يقفون مكتوفي الأيدي أمام قتل إخوانهم بفلسطين من قبل الجنود الصهاينة، يسخر ممن يسمعون وإسلاماه، واعرباه. لقد أسمعت إذ ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي، ولكن ليست السخرية فقط هي التي تعبر عن رد الفعل إزاء إسرائيل وجنودها الأشرار الذين قتلوا الطفل محمد الدرة البريء على مرأى العالم كله ومسمعه، وإنما تبين مدى رفض الشاعر لما هو كائن من سكوت الطرف العربي الإسلامي وغطرسة الجانب الإسرائيلي، وعريضة جنوده الذين لم يقيموا وزناً لقوة العرب، وتمادوا

في استخفافهم تمادياً كبيراً.

كما تكشف هذه المطولة عن وعي عميق بذلك الحدث المأساوي الذي أودى بحياة طفل بريء برصاصات الغدر الصهيونية في حضان أبيه الذي لم يستطع دفع الموت عن فلذة كبده كما تكشف هذه المطولة عن أبعاد ذلك الحدث السياسي، تلك الأبعاد تعني امتداد أيدي الجنود الصهاينة إلى أطفال الدول العربية إذا شاءت ذلك. وهذا يدل على فكر الشاعر ووعيه المتقدمين، كما تكشف هذه المطولة عن قدراته الإبداعية واستيعابه لقضية شعبه الفلسطيني بشكل خاص، وقضية أمته العربية بشكل عام، فهو يعي جيداً الأوضاع السياسية في المنطقة ظاهراً وباطناً، إذ يستشعر أحداثاً ومواقف لم يستشعرها المواطن العادي. كما تنبئ هذه المطولة عن اطلاع الشاعر الواسع على مجريات الأحداث التاريخية والسياسية وإلمامه الكبير بها وعمق ثقافته التي جمعها من دراساته في العلوم السياسية لدرجتي الماجستير والدكتوراه، بالإضافة إلى تنقلاته بين أقطار الوطن العربي وشغله لبعض المناصب في السلك الدبلوماسي.

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر قد استحضر التراث الإسلامي من خلال شخصيات بعض القادة الإسلاميين ليساعده على تجسيد رؤيته الشعرية بكل أبعادها تجسيداً فنياً رائعاً.

تلك هي إطلالة عابرة في عالم الشاعر عمر محمود شلايل الفني والشعوري الذي وجهه في بناء مطولته التي أسماها محمد الدرة الفلسطيني؛ ليعبر من خلالها عن همومه وهموم شعبه الفلسطيني، بل يعبر عن هموم عصرنا العربي بصوت متميز مقتدر على الربط بين النواحي الإبداعية والنواحي السياسية بلغة - أظنها - صادقة وإن تجاوزت الحدود المطلوبة، وقد أضافت صفحة جديدة إلى صفحات الإبداعات التي كتبت في انتفاضة الأقصى، وتتفجر أعماق هذه المطولة الإبداعية حتى تغدو معادلاً موضوعياً للواقع

المعيشي للوطن العربي من خلال الجمل الاستفهامية العديدة وعلى هذا النحو البارع تتعانق كل المحاور التي شكلت هذه المطولة بأدواتها الفنية، وتتفاعل مع بعضها البعض لتجسد الرؤية الشعرية في هذه المطولة بأبعادها النفسية المتعددة، فلا بد من عودة العرب إلى صف واحد ولحمة واحدة في وجه الأعداء أعداء الإسلام والمسلمين، وعلى العرب أن يعلنوا الحرب على حالة الانكسار الداخلية التي يعيشها بعضهم حتى يتحقق النصر المنشود.

الهوامش:

- (1) نبذة عن الشاعر، فهو عمر محمود شلايل، المكنى بأبي رجائي، وقد ولد بمدينة يينا سنة 1942م، تخرج مهندساً في جامعة الإسكندرية، وحصل على الدكتوراة في العلوم السياسية، وتنقل في مناصب ومواقع متعددة حتى شغل منصب سفير دولة فلسطين في الخرطوم منذ سنة 1985م حتى الآن، بدأ نشاطه السياسي رئيساً لاتحاد الطلبة الفلسطينيين، ثم أمين سر حركة فتح في ليبيا، فرئيساً للمجلس الأعلى للمهندسين الفلسطينيين، وعضواً للمجلس الوطني الفلسطيني، وهو شاعر موهوب له عدة دواوين طبع بعضها، إلى جانب عشرات المقالات السياسية، ومشاركة في عدة مؤتمرات سياسية وثقافية عربية وأوروبية.
- (2) انتفاضة الأقصى، يوميات ووثائق، الكتاب الأول، 2000/9/29م - 2000/10/28م، السلطة الوطنية الفلسطينية، الهيئة العامة للاستعلامات / 16.
- (3) انظر أعمال الشاعر: عمر محمود شلايل (أبو رجائي):
- ديوان رحيل الغضب، طبع في الخرطوم سنة 1988م.
- ديوان قصائد للحجر عند مفرق الشهداء طبع في الخرطوم سنة 2001م.
- (4) القصيدة الأموية (رؤية تحليلية): د. عبد الله التطاوي، مكتبة غريب بالقاهرة، 1984م/أ.
- (5) القضايا البلاغية والأسلوبية في مفتاح العلوم للسكاكي: رسالة دكتوراه، محمد صلاح زكي محمود أبو حميدة، مخطوطة بكلية الآداب، جامعة عين شمس، 1996م/65، 66.
- (6) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني: د. محمد عبد المطلب، ط1، 1990م/106.
- (7) محمد الدرة (الفلسطيني): شعر عمر محمود شلايل (أبو رجائي) الخرطوم أكتوبر/تشرين الأول، 2000م/1.
- (8) السابق/1.
- (9) السابق/1.
- (10) شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1886م/ج4/217.
- (11) محمد الدرة (الفلسطيني): 2
- (12) السابق: 2
- (13) قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1983م/263.
- (14) محمد الدرة (الفلسطيني): 2.
- (15) السابق: 2.
- (16) بناء الأسلوب في شعر الحداثة: د. محمد عبد المطلب، 1986م/392.

- (17) سورة الأحزاب، آية: 23.
- (18) محمد الدرة (الفلسطيني): 2.
- (19) سورة الصف، آية: 3.
- (20) محمد الدرة (الفلسطيني): 2.
- (21) قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تأليف الشاعر الأديب أبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي، المتوفى سنة 517هـ: تحقيق الدكتور محسن غياض عجيل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1/1881م/90.
- (22) محمد الدرة (الفلسطيني): 3.
- (23) السابق: 3.
- (24) السابق: 3.
- (25) السابق: 3.
- (26) سورة النور، آية: 39.
- (27) محمد الدرة (الفلسطيني): 3.
- (28) أمية بن أبي الصلت، شاعر جاهلي من شعراء المذاهب الدينية والآراء الاجتماعية، توفي نحو سنة (630م) انظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1/1986م/286، 287.
- (29) محمد الدرة (الفلسطيني): 3.
- (30) مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع: د. توفيق الزيدي، سراس للنشر، تونس، 1985م/148.
- (31) محمد الدرة (الفلسطيني): 3.
- (32) السابق: 4.
- (33) دراسة في البلاغة والشعر: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1991م/13، 14.
- (34) محمد الدرة (الفلسطيني): 4.
- (35) سورة البقرة، آية: 17.
- (36) محمد الدرة (الفلسطيني): 4.
- (37) السابق: 5.
- (38) السابق: 5.
- (39) السابق: 5.
- (40) السابق: 6.
- (41) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح وتحقيق حجر عاصي، دار الفكر العربي، بيروت،

ط1994/م113.

- (42) محمد الدرة (الفلسطيني): 7.
- (43) السابق: 7.
- (44) السابق: 8.
- (45) السابق: 8.
- (46) السابق: 9.
- (47) انظر عبقرية خالد: عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، آذار (مارس) 1969م.
- (48) محمد الدرة (الفلسطيني): 9.
- (49) السابق: 9.
- (50) سورة الدخان، الآية: 29.
- (51) محمد الدرة (الفلسطيني): 10.
- (52) السابق: 10.
- (53) خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب: تأليف عبد القادر بن عمر البغدادى، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ط2، 1981م / ج4 / 488.
- (54) محمد الدرة (الفلسطيني): 10.
- (55) السابق: 10، 11.
- (56) السابق: 11.
- (57) السابق: 11، 12.
- (58) السابق: 12، 13.
- (59) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1965م، ج3، 139-142.
- (60) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحية (قراءة نقدية لنموذج معاصر): د. عبد الله محمد الغدامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998م/271.
- (61) نظرية البنائية في النقد الأدبي: د. صلاح فضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1985م/36.
- (62) محمد الدرة (الفلسطيني): 13، 14.
- (63) انظر تاريخ الطبري (الرسائل والملوك): تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1967م، ج1 / 435 - 442.
- (64) انظر مجزرة الخليل 15 رمضان 1414هـ، 25 شباط 1994م: بلال الحسن، دار كنعان

للدراستات والنشر، دمشق، ط1، 1994م/12.

- (65) محمد الدرة (الفلسطيني): 14.
- (66) السابق: 14، 15.
- (67) السابق: 15.
- (68) السابق: 15.
- (69) السابق: 16.
- (70) السابق: 16.
- (71) السابق: 17.
- (72) السابق: 17.
- (73) السابق: 18.
- (74) السابق: 18.
- (75) السابق: 19.
- (76) أشكال التناص الشعري (دراسة في توظيف الشخصيات التراثية): أحمد مجاهد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م/92.
- (77) محمد الدرة (الفلسطيني): 19.
- (78) السابق: 19.
- (79) السابق: 19، 20.
- (80) السابق: 20.
- (81) السابق: 21.
- (82) شرح ديوان المتنبي: ج3/394.
- (83) محمد الدرة (الفلسطيني): 21، 22.
- (84) أشكال التناص الشعري: 92.
- (85) محمد الدرة (الفلسطيني): 22.
- (86) السابق: 23.
- (87) السابق: 23.
- (88) السابق: 24.
- (89) السابق: 24.
- (90) السابق: 25.
- (91) طلال أبو رحمة، المصور الذي صور عملية استشهاد الطفل محمد الدرة.
- (92) محمد الدرة (الفلسطيني): 26.
- (93) السابق: 27.

- (94) السابق: 27.
- (95) السابق: 27، 28.
- (96) السابق: 29.
- (97) الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، بدون 1966م/10.
- (98) أشكال التناص الشعري: 87.
- (99) السابق: 87.
- (100) انظر الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952م/249، 263.
- (101) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1979م/175.
- (102) التصوير البياني: د. حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ط1/1970م/147.
- (103) محمد الدرة (الفلسطيني): 30.
- (104) السابق: 31.
- (105) سورة مريم، آية: 15.

قائمة المصادر والمراجع :

- أشكال التناص الشعري (دراسة في توظيف الشخصيات التراثية): أحمد مجاهد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.
- انتفاضة الأقصى، يوميات ووثائق، الكتاب الأول، 29/9/2000م-28/10/2000م، السلطة الوطنية الفلسطينية، الهيئة العامة للاستعلامات.
- بناء الأسلوب في شعر الحداثة: د. محمد عبد المطلب، 1986م.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1965م.
- تاريخ الطبري (الرسل والملوك): تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1967م.
- التصوير البياني: د. حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ط1/1970م.
- الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم): حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1 1986م.
- خزانة الأدب ولبّ أبواب لسان العرب: تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ط2، 1981م.
- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحية (قراءة نقدية لنموذج معاصر): د. عبد الله محمد الغدامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1998م.
- دراسة في البلاغة والشعر: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1991م.
- ديوان رحيل الغضب، طبع في الخرطوم سنة 1988م.

- ديوان قصائد للحجر عند مفرق الشهداء طبع في الخرطوم سنة 2001م.
- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1886م .
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح وتحقيق حجر عاصي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1/1994م.
- الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، بدون 1966م.
- الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952م.
- عبقرية خالد: عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، آذار (مارس) 1969م.
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1979م.
- قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تأليف الشاعر الأديب أبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي، المتوفى سنة 517هـ: تحقيق الدكتور محسن غياض عجیل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1/1881م.
- القصيدة الأموية (رؤية تحليلية): د. عبد الله التطاوي، مكتبة غريب بالقاهرة، 1984م.
- القضايا البلاغية والأسلوبية في مفتاح العلوم للسكاكي: رسالة دكتوراه، محمد صلاح زكي محمود أبو حميدة، مخطوطة بكلية الآداب، جامعة عين

شمس، 1996م.

- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني: د. محمد عبد المطلب، ط1، 1990م.
- قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1983م.
- مجزرة الخليل 15 رمضان 1414هـ، 25 شباط 1994م: بلال الحسن، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 1994م.
- محمد الدرة (الفلسطيني): شعر عمر محمود شلايل (أبو رجائي) الخرطوم أكتوبر/تشرين الأول، 2000م.
- مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع: د. توفيق الزبيدي، سراس للنشر، تونس، 1985م.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي: د. صلاح فضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1985م.